العظماء المُبدعون
وآثارهم في التاريخ

اسم الكتاب	:	العظماء المبدعون وآثارهم في الإسلام
تأليف	:	د/ عبد الجواد أحمد السيوطي
مراجعة لغوية	:	
إخراج فني	:	
تصميم	:	
رقم الإيداع	:	
الترقيم	:	
الناشر	:	اسكرايب للنشر والتوزيع

للتواصل معنا

scribe20199@gmail.com

+201005079256

+201099727510

دار اسكرايب للنشر والتوزيع

SCRIBE
اسكرايب
للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة

بأي شكل من الأشكال

ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

سلسلة (الجيل المنشود) ج ٣

العظماء المبدعون وآثارهم في التاريخ

الدُّكْتُور

عبد الجواد أحمد السيوطي

إهداء

إلى أحبابنا في الله جميعاً.

إلى كلّ مظلومٍ قابضٍ على دينه.

إلى كل الدعاة المخلصين في كل مكان.

إلى كل الشباب المتمسُّكين بدينهم في كلّ بقعة من بقاع الأرض.

إلى والدِي - رحمه الله - ووالدتي اللذَينِ تعبا كثيراً من أجلي.

إلى زوجتيّ وأولادي وأخي الذين ضحّوا براحتهم لأجل راحتي.

إلى كلّ مَن تعلمت منهم ولو حرفًا وكان لهم الفضلُ بعد الله..

قال ﷺ قال: "**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**" رواه أحمد.

أهدي لهم جميعاً هذه الصفحات المتواضعة.

في البداية: نصر الله قريب، ووعده سيتحقَّق.

نورٌ من القرآن الكريم:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

[سورة الصف: ٨]

قبس من السنة:

عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله ﷺ "مثلُ أمّتي مثَلُ المطَر لا يُدرَى أَوّلُه خيرٌ أَم آخره" أخرجه أحمد والترمذيّ وغيرهما.

دَقَّاتُ قَلــــــــبِ المَـــرءِ قائِلَـــةٌ لَـــــــــهُ
إِنَّ الحَـــــياةَ دَقائِــــــــــــقٌ وَثَـــــــواني

فَـــارِفَع لِنَفسِـــكَ بَعـــــــــدَ مَوتِـــكَ ذِكرَهـــا
فَالـــــذِكرُ لِلإِنســـــانِ عُمـــــرٌ ثـــــــاني

وبعد:

فهذا هو الكتاب الثالث ضمن سلسلة (الجيل المنشود) وهي سلسلة تربوية.

الأول منها هو كتاب (مدرسة العظماء).

والثاني هو كتاب (مواقف من حياة العظماء).

وهذا الكتاب الثالث (العُظَماءُ المُبْدِعون) وهو كتاب تربوي يحتوي على نماذج مُشرقَةٍ مُشرِّفة يستفاد من منها ونحتاج إلى النظر وأَخذِ العبرة والعِظة من مواقفها وخاصة في زماننا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وآله ومن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإنه لا يخفى على كل عاقل غيور محبّ لدينه وأمّته مدى أهمية وأثر التربية الصحيحة للأفراد والمجتمعات، وأنها هي الأساس الأمثل والطريق الأقوم في سبيل النهوض بأُمّة الإسلام واستعادة مجدها الموءود، وأنها السراج المنير في خضم هذه الأمواج المتلاطمة والعواصف الشديدة التي تأخذ الأمة يميناً ويساراً، بإغراق شبابها وإفسادهم وإبعادهم عن دينهم إما بالشهوات أو بالشُّبهات، والشباب هم أهم ثروتها وسرّ نهضتها، وأعزّ ما تملك.

والتربية الحقيقية الجادة المثمرة فعلاً تعتمد - فيما أحسب - على فَهم القِيَمِ الإسلامية الصحيحة، ثم تطبيقها تطبيقاً سليماً صحيحاً، ثم متابعتها باستمرار مع المُتَلَقّين، ومن ثم تكرارها حتى تتقرر فتصبح خُلُقاً مألوفاً عندهم، راسخاً في تعاملاتهم.

لهذا حَرصت في هذا الكتاب أن يكون تربويا عن طريق القصص التاريخية، وذلك لِما للقصة من التأثير الكبير وحُسن الواقع التربوي عند الفئة المستهدفة – الصغار والشباب – وهم عماد الأمة وقوتها التي استهدفها الأعداء

من الداخل والخارج ليقعوا فريسة لهم عن طريق الشبهات والشهوات ومن ثم يسهُل عليهم بعد ذلك السيطرة على العقول ويسهل حينها احتلال الأرض والعرض.

وقد آثرت في هذا الكتاب أن أبتعد عن شخصيات الصحابة الكرام - رضي الله عنهم أجمعين - مع أنهم أفضل البشر بعد الأنبياء، وأفضل جيل عرفته البشرية على الإطلاق، ليس لشيء إلّا لأن الكثير يعرفهم معرفة جيدة ويعرف مواقفهم المشْرِقة المُشَرِّفة التي لا تخفى على كل ذي عينين، وحتى لا يُقال هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ تربّوا على يديه فكيف لنا أن نصل إلى ما وصلوا إليه.

كما أنّ الكثير من المسلمين لا يعرفون بعض الشخصيات الإسلامية التي غيرت التاريخ للأفضل نحو الإسلام وكانوا سبباً كبيراً في عزة دينهم وشعوبهم ودولهم.

نرى في هذا الكتاب بعضاً من الشخصيات التي أنارت العالم سواء بالفقه الإسلامي، أو بالعلم والجهاد، ومنهم من أنار الله به الدنيا بسبب منصب تقلّده فخدم عن طريقه الإسلام أيّما خدمة، وغير ذلك ممن سنراهم في هذه الصفحات التي أحاول أن أبين فيه الطرق العملية من خلال هذه الشخصيات كيف نخدم الإسلام وكيف نرتقي بأنفسنا كأفراد وأُسَرٍ ومجموعات وشعوب، حتى نصل إلى ما يريده الله ورسوله منّا جميعاً، ومن ثم نكون أمّة ناهضة متقدمة على يد أبنائها، أمة متبوعة من الجميع لأنها أحقّ بذلك لما لها من مقومات علمّها إيّاها الإسلام، وليست أمّة تابعة لغيرها من الأمم، وهذا لا يتحقق إلا على يد أبنائها الصالحين المصلحين، وكم عندنا في تاريخنا الإسلاميّ من العظماء الكثير والكثير وإن جهلهم كثير من طلاب العلم فضلاً عن غيرهم.

وحديثنا في هذه الصفحات يكون منصَبًّا على مواقف لهذه الشخصيات مع تعريف مبسّط بالشخصية التي سنتحدث عنها، مع محاولة إسقاط هذه المواقف على واقعنا وحياتنا وكيفية الاستفادة منه في واقعنا. ولست أدّعي أني أتيت في هذا الكتاب بما لم يأته الأوائل، لكن هو عبارة عن محاولة رجاء أن أنتفع به في دنياي وآخرتي، وأن ينتفع به كل مَن يقرأُه، كما حاولت جاهداً أن يكون هذا الكتاب لَبِنةً صالحة في إعداد جيلٍ مسلمٍ تحتاج إليه أُمّتنا. والحمد لله أولاً وآخراً.

وكتبه:

د. عبد الجواد أحمد عبد المولى آل موسى السيوطي. أبو محمود.

مصر- أسيوط - ديروط - نجع سويلم

ومـــا مـــن كاتـــبٍ إلا سيفنـــــــــــــى

ويُبقِـــي الـــــدَّهرُ مـــا كتبـــت يـــداهُ

فـــلا تكتـــب بخطـــك غـــــــير شيءٍ

يَسُـــــرّك في القيامـــــة أن تـــَـــــــراهُ

***

١- نظام المُلْك الطُّوسِيّ الوزير العالِم

في تاريخنا الإسلامي بعض المحطات الفاصلة التي كان لها دورا عظيمًا في إحداث طَفَراتٍ عظيمة هائلة، والناظر في هذه التحولات الكبيرة يجد أنها غالبًا ما تكون مرتبطة بأشخاصٍ عِظام، كانوا هم من أهم هذه الأسباب التي ساهمت في تحوّل مسار الحضارة الإسلامية؛ فكأن الله أعطى هؤلاء العظماء القدرة على فتح الأبواب المغلقة مما جعلهم يُغيّرون تيار هذه الحضارة للأفضل في الزمان والمكان؛ حتى تفوّقت على ما سِواها من الحضارات الموجودة في زمانها والمعاصرة لها؛ علميًا وسياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا وعسكريًا.

ولعل من هؤلاء العِظام الوزير الكبير "نظام المُلك الطُّوسيّ"، قوَّامُ الدِّينِ أَبُو عَلِيّ الحَسَن بْنُ عَلِيّ بْنِ إِسْحَاقِ بْنِ العَبَّاسِ الطُوسِي الملقب بـ "خواجة بزك" أي "نظام المُلك"، من مواليد طوس، في خُراسان أحد أشهر وزراء دولة السلاجقة، حيث كان وزيرًا للسلطان ألب أرسلان وابنه السلطان ملكشاه، والوزير "نِظام المُلك" لم يكن وزيرًا فريدًا أو سياسيًّا ماهرًا فحسب؛ بل كان داعيًا للعلم والأدب محبًّا لهما؛ أنشأ المدارس المعروفة باسمه" المدارس النظَّاميَّة"، وأجرى للقائمين عليها وطلابها الرواتب المجزية، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدِّثين، وفي مقدِّمتهم حُجَّة الإسلام أبو حامد الغزالي. هذا الرجل الذي عمل وزيرا لمدة ثلاثين عاما كاملة لاثنين من سلاطين الدولة السلجوقية، ألب أرسلان وابنه ملكشاه، كيف لا وهو الرجل العظيم الذي خلّد التاريخ ذِكره بما أثبته من قدرة كبيرة وكفاءة منقطعة النظير تكاد تكون نادرة في تاريخ الإدارة والسياسة الشرعية في حضارة الإسلام، بل إنه فوق كل مهامه الحربية والإدارية الجسيمة كان رجل علم وثقافة، حتى أنه أَلَّفَ كتابه الفريد في بابه

(سياسة نما) أي "سير الملوك" والذي يُعدّ واحدا من أهم مصادر السياسية والآداب السلطانية وفنون الحُكْم في تاريخ الإسلام، حيث تحدث فيه عن تنظيم الحكم وعن ضرورة قيام العدل، وتنظيم أمور الدولة والاستقطاع، وتنظيم الإدارة والجيش، وتاريخ العلاقة بين السلطة المركزية في عصر السلاجقة؛ فمن هو هذا الرجل العظيم نظامُ المُلك الطُّوسيّ الذي تبوّأ المكانة المرموقة في تاريخنا الإسلاميّ؟ وكيف كانت نهايته المأساوية؟ وكيف نستفيد من حياته وأعماله؟!

الفقر ليس عائقًا:

نِظام المُلك هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي في إحدى قرى ولاية طُوس في أقصى الشرق الإيراني حاليًّا، سنة ٤٠٨هـ، واغتالته طائفة الحشاشين الشيعية الرافضية الخبيثة[١] - رحمه الله - في ١٠ رمضان سنة ٤٨٥هـ حيث كان أبوه يعمل فلاحًا وكان رجالات الإدارة أيام الدولة الغزنوية وكان دخله الشهري لا يكفي حاجته وحاجة أبنائه، ومع الفقر الذي عاشه نظام المُلك إلا أنه برع بفضل ذكائه وطموحه في التعليم وتدرج في المناصب حتى أصبح كاتبًا ثم وزيرًا في عهد الدولة السلجوقية.

كانت وفاة والدة نظام الملك مأساة كبيرة حيث توفيت أمه وهو رضيع؛ كما أن والده كان فقيرًا لدرجة أنه لا يستطيع أن يستأجِرَ لابنه مُرضعة ترضعه، فكان أبوه يمر به على البيوت علّه يجد من النساء مَن تُرضعه دون مقابل،

(١) لقبوا بالحشاشين. قيل: لأنهم كانوا يختفون وسط الحشائش لاغتيال معارضيهم، وقيل لشربهم "الحشيش" قُبيل عمليات الاغتيال وقيل غير ذلك. وهي إحدى فرق الشيعة الباطنية الإسماعيلية سُمّيت بالحشّاشين. وكان ظهور هذه الطائفة -على يد مؤسسها الحسن بن الصباح الإسماعيلي – وهي فرقة شديدة الدموية والجرأة في مواجهة الخصوم.

فكان أول ما تفتحت عليه عين نظام الملك هو الفقر المُدقع، لكنه كان هو الشعور الذي جعله صاحب عِزّة وذا طموح كبير، ما كان سببًا في دفعه للتعلم وحفظ القرآن الكريم، فقد وصفه المؤرخ الكبير ابن الأثير بقوله: " نشأ نظام المُلك وسِرُّ الله فيه يدعوه إلى علوّ الهمة، والاشتغال بالعلم، فتفقّه وصار فاضلا".

وفي بلدته التي وُلد فيها تعلم العربية بجوار الفارسية، وقرأ القرآن الكريم والحديث واللغة والنحو، ودرس الفقه على المذهب الشافعي، والاعتقاد على المذهب الأشعري، ولحبه لتعلم الحديث النبوي الشريف فقد قرر كدأب أقرانه من طلبة العلم الارتحال لطلبه وسماعه بين كبار شيوخه في كلٍّ من العراق وخراسان والري وأصفهان ونيسابور؛ بل إنه تحصّل على درجة عالية في هذا العلم جعلته يجلس لإملاء الحديث على طلبة العلم في مدينة الري [1].

على أن الطوسي شُغف بما شُغف به والده الذي انخرط في سلم الإدارة، فتعلم لأجل ذلك الكتابة والإنشاء وتعمق فيها، فضلا عن علم الحساب، وكانا من أساسيات القبول في دواوين الحكومات المحلية في مناطق العالم الإسلامي كافة آنذاك، وبالفعل انخرط نظامُ الملك في دواوين الدولة الغزنوية في عاصمتها غزنة في أفغانستان، وهناك زادت خبرته، وبزّ أقرانه، ولعل ذلك جعل الإمام الذهبي يقول فيه: "فصار كاتبا نجيبا إليه المنتهى في الحساب، وبرع في الإنشاء، وكان ذكيا لبيبا كامل السؤدد".

نظام المُلك الطُّوسيّ يعدّه المؤرخون بأنه أحد أعظم وأفضل وزراء المسلمين في التاريخ كله، إذا ما استَثنَينَا عصر النُّبوة وعصر الخلفاء الراشدين -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وكلمة الطُّوسيّ؛ نِسبة لمكان مولده.

(١) طهران اليوم.

والدولة السلجوقية كذلك هي من أعظم دول الإسلام لِما قدّمَتهُ من خدمات عظيمة للإسلام والمسلمين، فهي دولة واسعة المساحة وصاحبة أمجاد كبيرة، فقد كانت تحكم من حدود الصين شرقًا إلى آسيا الصغرى (تركيا حاليًا) وبلاد الشام، دولة واحدة مترامية الأطراف يحكمها سلطان واحد، كما كانت هذه الدولة سُنّيّة المذهب وذات صِبغةٍ إسلامية طيبة وكان لها آثار وأعمال مجيدة، كانت هذه الدولة عظيمة يهابها كل مَن حولها من الدول، وكان أحد أسباب عظمتها وسِرّ قوّتها هو الوزير نِظام المُلك -رحمه الله-.

الوزير الأول في تاريخ المسلمين:

كان نِظام المُلك الطُّوسيّ – رحِمَه الله - وزيرًا للقائد العظيم والسلطان الكبير أَلْب أَرسِلان عندما كان ألب أرسلان واليًا على خراسان، قبل تولّيه سلطنة الدولة السلجوقية، وظلّ وزيرًا له عندما صار سلطانًا، وكذلك ظلّ وزيرًا لابنه مَلِك شاه، الذي كان مثل أبيه في العَظمة وحُسن القيادة حيث كان من أعظم وأشهر سلاطين الدولة السلجوقية بعد أبيه أَلب أرسِلان وجده (عمّ أبيه) طِغرل بك، وظلّ وزيرًا للسلطان مَلِك شاه طول حياته، أي كان وزيرًا لهما حوالي ثلاثين سنة.

ويعتبر الوزير نِظام المُلك في الدولة السلجوقية تاريخيًّا أشهر من الأمراء أنفسهم في بعض الأوقات وذلك لاتساع خبراته وسِعة اطلاعه في كثير من العلوم المعروفة في زمانه، فقد كان عنده علوم ضخمة جعلته حكيمًا في قراراته في كل ما يقوم به..

- عنده علوم إدارية: مما جعله أدار الدولة بشكل أكثر من رائع.
- كما كان لديه علوم حربية في المعارك والحروب جعلته ينتصر في أكثر الحروب.

- كما كان له من العلوم الشرعية كالفقه والحديث والقرآن والتاريخ مما جعله يُقرِّب العلماء.
- كما كان لديه من العلوم الأخرى كالفلَك والنجوم والرياضيات.

حتى قيل عن الوزير العظيم نِظام المُلك أنه لا يوجد مجال من مجالات الحياة إلا وقد برع فيه نظام المُلك وتفوّق على غيره، وله كتابه المعروف المشهور المعروف بـ [سياسة ناما]، وهذا الكتاب أَلَّفهُ نِظام المُلك في أمور السياسة ليتعلِّم منه السلاطين والأمراء كيفية إدارة الدولة، وهذا الكتاب يعتبره علماء وخبراء السياسة من أفضل وأروع ما كُتِب في تاريخ السياسة الشرعية.

من أهم أعمال الوزير نظام الملك بناء المدارس المشهورة في التاريخ بالمدارس النّظامِيّة، وهي أهم وأعرق مدارس في التاريخ الإسلامي المعروفة باسم المدارس النظامية، وذلك نسبة لمؤسسها والقائم عليها الوزير نظام المُلك الطُوسيّ، وهذه المدارس كانت موجودة في كل مُدُن الدولة السلجوقية، أشهر هذه المدارس كانت في بغداد والموصل ودمشق ومرو وطشقند وغيرها من المُدن التي كانت تحت حُكم الدولة السلجوقية والتي كانت على مساحات هائلة من الأرض والتي تعتبر أكثر من عشرين دولة من الدول الحاليّة، وكان في كل مدينة من هذه المدن مدرسة أنشأها نظام الملك بُغْية نشر العلم الشرعي، وبُغْية مجابهة المناهج الشيعية أو الإسماعيلية التي كانت منتشرة في هذه الفترة.

وقد استمرّت هذه المدارس إلى زمن طويل حتى بعد سقوط الدولة السلجوقية والتي استمرت في الحكم أكثر من ثلاثة قرون: القرن الخامس، والقرن السادس، والقرن السابع الهجري، وكان نظام الملك ضمن وزراء القرن الخامس الهجري أي في زمن أوائل الدولة السلجوقية الفتيّة آنذاك.

محبّةٌ لا تمنع النصيحة:

مما يدلّ على عمق المحبة المتبادلة بين كلٍ من السلطان السلجوقي "مَلِك شاه" والوزير "نظام الملك"، أن السلطان عندما يخاطب نظام الملك كان يقول له: يا أبتِ؛ لأنه هو الذي قام على تربيته عندما كان السلطان ملك شاه صغيراً فقد تولى السلطنة ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره لما تولى السلطنة، أما نظام الملك فكان عمره وقتها خمسين سنة، فقد كان وزيراً لأبيه السلطان "أَلب أرسلان" قبله، ولما حضرت الوفاة "ألب أرسلان" أوصى الوزير نظام الملك بابنه "ملك شاه"، فكان نعم الوصيّ على الابن السلطان الصغير، وقام برعاية الدولة أفضل رعاية.

فمَلِك شاه كان يناديه بـ "يا أبتِ" وكان الوزير "نظام المُلك" أحيانًا يُغلِظ عليه في النصيحة حتى يُبكيه ومن هذه النصائح التي أبكى فيها الوزير" نظام المُلك" السلطان" مَلِك شاه" هذه النصيحة المؤلمة التي لا تخرج إلا من رجلٍ باع الدنيا وعمِل للآخرة ولا يخاف في الله لومة لائم، وهذه الوصية لِمَلِكٍ له باع كبير في العبادة والجهاد والعلم والأخلاق الحميدة، فالنصيحة والوصية هي بين رجلين من أعظم رجال في تاريخ المسلمين قاطبةً.

بين يَدَيِ النّصيحة:

- ليتنا نقوم بمثل ما قام به الوزير "نظام المُلك" في رعاية العلم وأهله- أنفق الوزير "نظام المُلك" أموالًا طائلة في بناء المدارس الشرعية، كما أنفق الأموال الكثيرة على طلاب العلم ورعاية العلماء والزُّهاد والمنقطعين للعبادة من الصوفية وغيرهم في جميع أرجاء الدولة الإسلامية كلها، حتى قيل: " في زمان نظام المُلك لا تجد طالب علم في الدولة السلجوقية من شرقها إلى غربها – حوالي عشرين دولة بمصطَلَحِنا المعاصر- إلا ولنظام الملك يدٌ عليه حتى يُكمِل

في طريق العلم". تشير بعض التقديرات للأموال التي أنفقها الوزير "نظام المُلك" في بناء المدارس ورعاية طلاب العلم إلى أنه كان يُنفق في السنة الواحدة على أقل تقدير ثلاثمئة ألف دينار أو ستمئة ألف دينار من الذهب على أكثر تقدير، وهذا رقم كبير جدًا في زمانه، خاصة إذا ما عرفنا أنّ "نظام المُلك" كان وزيرًا للسلطان "ملك شاه" حوالي عشرين سنة، فكم يكون الأموال التي صرفها لرعاية العلم وأهله؟ وأيضًا يزداد العَجَب إذا عرفنا أن هذا المال الذي أنفقه كان من خزانة الدولة فقط غير ماله الخاص الذي أنفق منه الكثير، وهي أوجه يجب الإنفاق عليها شرعًا وعقلًا، وبهذا نعرف كيف كانت الدولة الإسلامية آنذاك من أقوى الدول وكان هذا لرعايته العلم وأهله والذي هو من أهم الأسباب في قوة الدول.

وَشَى أحدُ الواشين[1] الحاقدين على نظام الملك عند السلطان "مَلِك شاه" يُريد بهذه الوشاية أن يُقلِّل من مكانة الوزير عند السلطان حتى يُحدِث بينهم الفُرقة والجفوة وينزغ الشيطان بينهم، فقام هذا الحاقد إلى السلطان وقال له: (إن "نِظام المُلْك" يُنفِق أموال الدولة على طَلَبة العلم هُنا وهُناك وينفقها على من لا يستحقون، ولو أنه أنفق هذه الأموال الطائلة على الجيوش لوصلت جيوشنا أسوار القسطنطينية ولَرَفعت الدولة السلجوقية راية الإسلام على أسوارها، فانتبه لنظام المُلك ولا تجعله ينفق أموال الدولة فيما لا طائل من ورائه). فأوغر[2] هذا الكلام صدر السلطان "مَلِك شَاه" على الوزير "نِظَام المُلْك"، لكن السلطان كان ذا عقلٍ رشيد ورأيٍ سديد فلم يَقُم بسجن أو اعتقال أو قتل الوزير فورًا كما يفعله الآن بعض أصحاب الجاه وذووا السلطة، بل بدأ

(١) النّمّام الذي ينقُل الحديث عن الآخرين بخُبث على وجه الإفساد.
(٢) أوغر صدره: أغضبه وأشْعَلَهُ منَ الغيْظِ، وملأه حقدًا وكراهية.

باستدعاء الوزير ليسمع منه ويخبره بما سمع عنه وعن الأموال التي يصرفها هنا وهناك، وأن الأفضل أن نُنفقها على الجيش وعلى الحروب مع الدولة البيزنطية حتى تظل راية الإسلام عاليةً خفاقة.

ردٌّ بليغ من الوزير الزاهد:

قال الوزير "نِظَام المُلْك" للسلطان "مَلِك شاه": يا بني -يُخاطب السلطان-، أنا شيخٌ كبير طاعِنٌ في السنّ أعجمي وليس لي من جاه ولا سلطان مثلما لك، ولو نودي عليَّ – بالبيع في السوق- فيمن يزيد لم أحفظ –لم أساوي- خمسة دنانير. ومعنى كلام الوزير يقول: لو أنني أُسِرتُ في معركة من المعارك وأُتِيَ بي ليبيعوني في السوق، ويقوموا بعمل مزادٍ عليَّ، لا زيد على خمسة دنانير، ثم يكمل كلامه للسلطان قائلًا: أما أنت فأنت شاب في العشرين، فأنت شاب وكذلك من العِرق التركي ومن السلالة السلجوقية ومثلك لو نودي عليه في السوق عساك تحفظ ثلاثين دينارًا، - أي ربما تساوي بثلاثين دينارًا- والمعنى أنا وأنت ما قيمتنا في الحياة؟ إنما قيمتنا وأنا الوزير وأنت الملك، إذا حدثت معركة بيننا وبين الكفار وهُزمنا في هذه المعركة فإننا نكون أسرى عندهم، ومن ثم فإننا نُباع أنت بثلاثين دينار وأنا بخمس دنانير، فلا تنسى وضعك أيها الملك، ولا ننسى قيمتنا.

ثم يُكمل الوزير "نظام المُلك" للسُلطان " مَلك شاه" ماذا عنك أيها السلطان؟ وأنت مشتغلٌ بلذاتك، ومنهمكٌ في شهواتك، -والسلطان رحمه الله كان من العُبَّاد-؛ نحن مهما فعلنا لا نؤدي ما علينا لله -عز وجل-، وأكثر ما يصعد إلى الله معاصيك، أما جيوشك التي تُعدُّها للنوائب، والتي تريدني أن أُزيده وأصرف عليه أكثر، وهؤلاء إنما كافحوا عنك بسيوفٍ طولها ذراعان، وقوسٌ لا ينتهي مدى مرماه ثلاثمئة ذراع، وهذه غاية إمكانياتهم مهما زادت

فهي محدودة. ومع ذلك فبعضهم مستغرقون في المعاصي والخمور، والملاهي والمزمار والطبُّور[1]، وإن كان في الجيش السلجوقي الكثير من الجنود الذين هم على قدرٍ عالٍ من العبادة والتدين.

وأكمل الوزير الزاهد العابد "نظام المُلك" أمَّا أنا فقد أقمت لك جيشًا، وأنا أقمت لك جيشًا يُسَمَّى جيشُ الليل إذا نامت جيوشك ليلًا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفًا بين يدي ربهم؛ فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدُّوا إلى الله أكُفَّهم بالدعاء لك ولجيوشك، فأنت وجيوشك في خفارتهم[2] تعيشون، في حفظهم في حمايتهم تعيشون، وبدعائهم تثبتون، وببركاتهم تُمطرون وتُرزقون، تخرِق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرع؛ فبكى السلطان "مَلك شاه" بُكاءً شديداً ثم قال يا أبت – يقصد الوزير "نِظام المُلك" أكثر لي من هذا الجيش، أكثر لي من هذا الجيش[3].

انظر رحمني الله وإياك في الذي لا نراه الآن في واقعنا المعاصر!! السلطان يبكي بكاءً شديدًا من كلمات الوزير "نظام المُلك" الصادقة والتي - نحسب أنها - خرجت من قلبٍ صادق موصول بالله مما جعلها تدخل مباشرةً إلى قلب السلطان فما كان منه إلا أن قال: يا أبتِ؛ أكثر لي من هذا الجيش، وأكثر من الإنفاق على هؤلاء العلماء وطُلّاب العلم والدعاة والعُبّاد فهم الذين يُقام بهم الإسلام وتقام الدُول على أكتافهم.

وبعد هذا الحوار والنصيحة الصادقة بضوابطها وشروطها من الوزير للسلطان أكمل -رحمه الله- في الإنفاق على المدارس إلى آخر حياته واستشهاده،

---

(١) الطبُّور: هي آلة مثل العود.

(٢) أي: في حراسة هؤلاء، فهم الذين يحرسونك بدعائهم وتضرُّعهم لله.

(٣) "سراج الملوك" أبو بكر الطرطوشي، (ج١: ١٢٨).

حيث أن الوزير "نِظام المُلك" استشهد على يد فرقة الحشّاشين وهي إحدى فِرَق الشيعة الروافض، قتلوا نظام الملك من شدة عمله لنصرة الإسلام والمسلمين، كان يحقد عليه أعداء الأمة فقتلوه شهيدًا -رحمه الله- سنة ٤٨٥هـ كما قتلوا السلطان السلجوقي " مَلِك شاه" في نفس السنة.

وهذا الكلام الذي قاله "نظام المُلك" للسلطان ليس كلامًا خارجًا عن إطار الشرع بل هو عين الشريعة، يقول - صلى الله عليه وسلم- كما صحيح البخاري من حديث مصعب بن سعد بن أبي وقّاصٍ قال: "رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عنْه أنَّ له فَضْلًا علَى مَن دُونَهُ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: هلْ تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ إلَّا بضُعَفَائِكُمْ؟!" وهكذا النبيّ يُعلِّمنا أن نصرة المسلمين تكون بالضعفاء ويعلمنا الحَديثِ: الاستِعانةُ بدُعاءِ الضُّعَفاءِ على النَّصرِ على الأعداءِ؛ لِأنَّ النَّصرَ إنَّما هو مِن عِندِ اللهِ؛ فلا يَنبَغي الاعتِمادُ فيه على مُجرَّدِ القُوَّةِ العَسكريَّةِ، أوِ البُطولةِ والشَّجاعةِ، وإنَّما يَنبَغي الاعتِمادُ على اللهِ، والإكثارُ مِنَ التَّضرُّعِ والاجتِهادِ في الدُّعاء.

وهذا من تمام فقه نظام المُلك الذي نشأ وتربى في محاضن العلم والعلماء، كيف لا يكون هكذا وهو الحافظ للقرآن الكريم، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، والدارس لكتب الفقه على يد العلماء، وهو المُكثر لقيام الليل، العابد الزاهد، الذي قيل في وصفه أنه كان إذا أذَّن المؤذن قام للصلاة، قطع كل الأعمال، كان يُقدِّم الصلاة على أي عمل من الأعمال، وكذا إذا غفل المؤذن عن أول وقت الصلاة وكان في معركة كان في مكان ما بعيد عن المساجد هو الذي يلفت نظر المؤذن، دائم الترقُّب لأول وقت الصلاة حتى يلفت نظر المؤذن إلى ذلك.

الوزير والمدارس النِّظاميّة:

كان هذا هو الوزير "نِظام المُلك " الذي لم يُعطِهِ التاريخ حقّه الذي يليقُ

به وبمكانته كمؤسِّس للمدارس النِّظامية[١] -التي هي بمثابة الجامعات العملاقة الآن- وكانت في أماكن كثيرة من الدولة السلجوقية مثل المدرسة النظامية في الموصل. والمدرسة النظامية في بغداد. والمدرسة النظامية في أصفهان[٢]. المدرسة النظامية في تسخور[٣] والمدرسة النظامية في نيسابور. والمدرسة النظامية في بلخ. والمدرسة النظامية في البصرة. المدرسة النظامية في هراة وغيرها من مدن الدولة الإسلامية، وهذه هي المدارس التي دَرَّسَ أو تخرّج منها العلماء الكِبار في مختَلَفِ المجالات والفنون من أمثال الإمام شيخ الإسلام أبو إسحاق الشيرازي وكان الوزير نظام الملك قد بنى له المدرسة النظامية، وهو أول من درس فيها.

والإمام حجة الإسلام الغزالي ودرس بها أربع سنوات. وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني. وشيخ الشافعية أبو نصر بن الصباغ. وأبو الفتح أحمد بن علي بن برهان. وشيخ الإسلام أبو يعقوب الهمذاني. وشيخ الإسلام ابن الجوزي. والإمام شمس الإسلام الكيا الهراسي. والإمام الحنفي الزائر علي بن أبي طالب البلخي سفير ألب أرسلان. والإمام أبو بكر الشاشي القفال، الملقب بفخر الإسلام، رئيس الشافعية بالعراق في عصره. والإمام الحافظ فخر الدين بن عساكر، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام. وابن رافع الأسدي المعروف بابن شداد المؤرخ المعروف. وقد وفَّرَتْ لهم المدارس النّظاميّة السكن والمأكل والمشرب داخلها[٤]، كما كان ينال طلابها ومعلموها دائما نصيب من الأوقاف التي توقف على المدارس من قِبَل الدولة خاصة السلجوقية و "نظام المُلك"، وقد تخرج من هذه المدارس النظامية عدد من العلماء كما ذكرنا عدداً منهم

(١) نِسبةً إلى الوزير نِظام المُلك رحمه الله.
(٢) إيران الآن.
(٣) داغستان الآن.
(٤) ما يُعرف الآن بالسكن الداخلي أو المدينة الجامعية.

والذين نالوا شهرة علمِيّة عظيمة في كل المجالات والفنون في عصر السلاجقة وبعدهم بقرون طويلة كما بُني على غرارها الكثير والكثير من المدارس في كثير من البلدان والدول، وكل هذا في ميزان حسنات الوزير العظيم" نِظام المُلك" والسلطان العظيم "أَلْب أرسلان" وابنه السلطان الفذّ "مَلِك شاه" سلاطين الدولة السلجوقية الإسلامية العظيمة الكبيرة، كان هذا هو الرجل العظيم الذي يحتاج كل مسلم إلى معرفة سيرته وسيرة دولةٍ كان وزيرها العظيم في فترة عصيبة من أهم فتَرات الدولة الإسلامية في القرون الوسطى وبداية الحمَلات الصّليبيّة على بلاد المسلمين والتي كانت الدولة السلجوقية لها اليد الأولى والعُليا في الحفاظ على بلاد المسلمين من الحَمَلات الصليبيّة المسعورة التي أرادت القضاء على الإسلام والمسلمين لولا أن قيّض لها هذه الدولة المباركة ومن ثم قامت بعدها بعض الدول الإسلامية.

كانت هذه إطلالة سريعة وخاطفة والتي تُعتبر نقطة في بحر من الفضائل والمكارم التي حازتها شخصيّة الوزير "نِظام المُلك" القديرة والتي أَثّرت في تاريخ أمّة الإسلام تأثيراً كبيراً ومباشِراً استمَرّ لقرون كثيرة بعد ذلك بل ربما بعض هذا التأثير مستمرّ حتى عصرنا الحاضر، ولهذا فالواجب علينا جميعاً البحث والقراءة عنه وعن غيره من الشخصيات التي لا تُحصَى في تاريخ المسلمين والتي تُغيّر نفوس وقلوب من يقرأها ويعمل على غرارها.

ما يستفاد من سيرة الوزير "نِظام المُلْك":

- الوزير العظيم "نِظام المُلك" هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، وهو أحد أبرز الوزراء العظماء، والسياسيين الكِبار في التاريخ الإسلامي، وُلِدَ -رحمه الله- سنة ٤٠٨هـ في طوس بإقليم خراسان (في إيران الحالية) وبرز في الدولة السلجوقية كإداري وسياسي بارع في خدمة هذه الدولة.

١. تولّى الوزارة في الدولة السلجوقية تحت حُكم السُّلطان ألب أرسلان وبعده ابنه السلطان ملكشاه السلجوقي. وقد اشتهر بحكمته وقدرته على إدارة شؤون الدولة بحنكة وقُدرة عاليّة.

٢. عَمِل على تعزيز هيبة الدولة وتنظيم أمورها الإدارية، وقام بإصلاح الضرائب والجيش والقضاء.

٣. اهتمّ بإنشاء المدارس النظامية والتي كان من أهم إنجازاته ولذا نُسِبَت إليه، وهذه المدارِس هي مؤسسات تعليمية عالية المستوى انتشرت في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، ومن أشهرها المدرسة النظامية في بغداد وهراة ونيسابور وبلخ وغيرها، وهدفت هذه المدارس إلى نشر العلوم الشرعية والعربية وغيرها، ومواجهة الأفكار المنحرفة المخالفة للمذهب السُّنّي.

٤. من أهمّ أعماله كتابه "سياسة نامه" (سير الملوك): ويُعد من أهم الكتب في الفكر السياسي الإسلامي.

وفاته:

اغتالته طائفة الحَشَّاشين على يد أحد أفرادها سنة ٤٨٥ هـ أثناء رحلته مع السلطان ملكشاه، وكان هذا بمثابة ضربة كبيرة للدولة السلجوقية.

إرثه وتأثيره:

عُرف نظام الملك بحكمته وعدله، واهتمامه بالعلم والعلماء. وقد لعبت المدارس التي أنشأها دوراً كبيراً في النهضة العلمية في العصر السلجوقي وما بعده. مما يجعله أنموذجاً للوزير الناجح الذي جمع بين قوة الشخصية والحكمة في الإدارة.

الأسئلة:

١. من هو نظام الملك؟ وما أبرز المناصب التي شغلها؟

٢. ما الدور الذي لعبه نظام الملك في خدمة الدولة السلجوقية؟

٣. كيف ساهم نظام الملك في تطور التعليم والثقافة في عصره؟

٤. ما هي أهم الأعمال التي أنجزها نظام الملك كوزير؟ وما أهم صفاته الشخصية؟

٥. ما الدور الذي لعبته المدارس النظامية في نشر العلوم الشرعيّة والثقافة الإسلامية؟

٦. ما الدروس التي نتعلمها من حياة نظام الملك وإدارته؟ وما طبيعة علاقته بينه وبين السلاطين؟

٧. ما أسباب اغتيال نظام الملك؟ ومن المسؤول عن ذلك؟

٨. كيف أثرت وفاة نظام الملك على الدولة السلجوقية؟

٩. ما مدى تأثير نظام الملك على تاريخ العالم الإسلامي في مجالات الحكم والسياسة؟

١٠. ما الدور الذي لعبه نظام الملك في التصدي للخطر الباطني (الإسماعيلي)؟

***

٢- عبد الله بن المبارك

هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم التميمي المروزي يكنى أبا عبد الرحمن كان أبوه تركياً يخدم عند رجل من التجار من بني حنظلة، وكانت أمه تركية خوارزمية. الحافظ شيخ الإسلام، المجاهد الزاهد، العابد إمام أهل السنة في خراسان في زمانه وقدوة المتقين في وقته العالم الرباني المجاهد، ولد سنة "١١٨هـ" وتوفي رحمه الله في سنة ١٨١هـ".

قال عنه الإمام الذهبي: الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه وأمير الأتقياء في وقته، طلب العلم وهو ابن عشرين سنة. أقدمُ شيخ لقيه هو الربيع بن أنس الخراساني، قيل: كان مسجوناً فتحيّل ابن المبارك ودخل إليه في السجن، فسمع منه نحواً من أربعين حديثاً، ثم ارتحل في سنة إحدى وأربعين ومئة، وأخذ عن بقايا التابعين وأكثر من الترحال والتطواف إلى أن مات في طلب العلم وفي الغزو وفي التجارة والإنفاق على الأصدقاء والإخوة في الله، وتجهيزهم معه إلى الحج. وقال الحسن البصريّ: كانت أم ابن المبارك تركية، وكان الشبه لهم بيناً فيه، وكان ربما خلع قميصه فلا أرى على صدره وجسده كثير شعر[١].

وقد قرأت وسمعت منذ الصغر - وما زلت متعلقا به - عن عبد الله بن المبارك وعن أبيه الرجل الزاهد العابد وسيرته وزواجه من أُمّ عبد الله المرأة العابدة الفقيهة التي أنجبت وربّت مثل هذا العالِم المجاهد عبد الله ابن المبارك، كان - رحمه الله - من كِبار العلماء المجاهدين والمؤثرين العظماء في

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣٢٣). من أعلام أهل السنة والجماعة عبد الله بن المبارك، محمد بن مطر الزهراني (ص: ١١). والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم ابن الجوزيّ (٩/ ٥٩). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام شمس الدين الذهبيّ (١٢/ ٢٢١).

تاريخ أمة الإسلام، لكنه كان له شخصيته الفذة الفريدة لما له من مرونة وتوازن غير طبيعي في العبادة والعلم والجهاد كما سيظهر في الصفحات القادمة.

إن من أسرار العظمة في الشخصية عامّة أنّ الانسان يكون له مجال معين يهتمّ به ويركز عليه، ويرسم له هدف معين ويبذل قصارى جهد للوصول إليه، وإرادةٍ جبارة ووسائل كثيرة للوصول إلى هذا الهدف العظيم المُراد، ومن هذه الوسائل الاحتكاك المباشر بالعظماء والعلماء الذين هم قدوة ويعملون في المجال الذي حدد هدفه في الوصول إليه، لكن الواجب والأهمّ في نفس الوقت أن يكون عند الإنسان توازن في الجوانب الأخرى التي يجب على المسلم بصفة عامّة والدعاة والعلماء والمصلحون بصفة خاصّة يكون عندهم هذا التوازن في المجالات الأخرى العلمية وغيرها، وشيء من العاطفة والروحانيات والعبادات كما كان ابن المبارك، الذي أراد أقرانه من العلماء أن يقلدوه في بعض أفعاله وحاولوا أن يقلدوه في علمه أو زهده وعبادته فما استطاعوا، وأراد تقليده الأغنياء في كرمه وجوده وسخائه فلم يفلحوا، فقد كان رحمه الله سخيًّا جَوَادًا، ومن قبل ذلك هو المجاهد الشجاع المِقدام العالم العابد الزاهد، حتى قيل عنه أنه زاحم الصحابة في العمل والاجتهاد في العبادة والزهد وغير ذلك من قوة الإيمان، فهو وإن كان من التابعين إلا إنّ معاصريه من العلماء الكبار كانوا يقارنونه بالصحابة – رضوان الله عليهم حتى قيل عنه أنه زاحم الصحابة في العمل فلم يسبقوه الا بصحبتهم النبي - ولقاءهم إيّاه وجهادهم معه ﷺ دعونا نعيش سيرة هذا البطل العظيم المتعدد الجوانب العظيمة الجليلة القدر، هذه الشخصية العبقرية والتي سنجد في العيش معها ما يجعلنا بحق بحاجة للاقتداء به وبأمثاله لا سيّمَا جيل الشباب المسلم الذين هم بحاجة ماسّة إلى مَن يقتدون بهم في سلوكهم وأخلاقهم وصفاتهم.

ابن المبارك العالِم المحدّث:

في البداية: كان عبد الله بن المبارك من كِبار علماء الحديث حتى أنه كان يُلَقّب بأمير المؤمنين في الحديث، إذ وصل في حفظ الحديث لأعلى الدرجات في حفظ السُّنَّة النبويّة، وهذا اللقب لم يظفر به إلا الأفذاذ النوادر من العلماء، الذين هم أئمة هذا الشأن والمرجع إليهم فيه، كشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، وعبد الله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، والبخاري، والدارقطني، وغيرهم من العلماء الكِبار والذين يحفظ أحدهم أكثر من ٧٠٠ ألف حديث حتى وإن كان بعضها صحيح و موقوفاً، يحفظها غيباً عن ظهر قلب، كما كان قولون عنه الزاهد العابد الفقيه المجاهد وشيخ الاسلام كل هذه الألقاب كان يُلقّب بها عبد الله ابن المبارك الذي قال: حَمَلتُ العلم عن أربعة آلاف شيخ، فرويت عن ألفٍ منهم. قال الذهبي: وحدث عنه خلق لا يحصون من أهل الأقاليم، فإنه من صباه ما فتر عن السَّفَر.. وقال يحيى بن معين: كانت كتب ابن المبارك التي حدث بها نحواً من عشرين أو إحدى وعشرين ألف حديث[1]. وليس هذا فَحَسْب بل كان ابن المبارك العالِم المحدّث مجاهدًا يقضي جُلّ وقته في الجهاد في سبيل الله، وكان يقاتل ويبلى بلاء حسناً، فإذا جاء وقت قِسمَة الغنائم غاب عنها، فقيل له في ذلك، فقال: يعرفني الله الذي أقاتل له. هكذا كانت نيّته في الجهاد، كانت لأجل إعلاء كلمة الله وابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى لا لمال ولا لمنصب ولا لجاه، إنما كان جهاده لنشر دين الله بين الناس، وإقامة العدل في الأرض بتحكيم كتاب الله والإسلام، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

(١) من أعلام أهل السنة والجماعة عبد الله بن المبارك، محمد بن مطر الزهرانيّ (ص: ٢٣). تذكرة الحفاظ الذهبيّ، (٢٧٥/١).

قال: عبد الله بن سِنان: كنت مع ابن المبارك ومعتمر بن سليمان- بطرسوس- فصاح الناس النفير، النفير، فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطف الجمعان، خرج عِلجٌ[1] روميّ فطلب المبارزة فخرج إليه رجل فشد العِلْجُ عليه فقتله، حتى قتل ستّةً من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة مرارًا، ولا يخرج إليه أحدٌ، فالتفت إليَّ ابن المُبارَك، فقال: يا فلان إن قُتِلتُ فافعل كذا وكذا. ثم حَرَّك دابته وبَرَز للعِلْج فتقاتل معه ساعة، فَقَتل ابن المبارَك العِلْج – الجُنديّ الروميّ-، ثمّ طلب المبارزة مرّةً أخرى فبرز له عِلْجٌ آخر، فقتله، حتى قتل ستة جنود من علوج الرّوم، وطلبه البراز فكأنهم جَبُنوا عنه وخافوا منه، فضرب دابته وطرد بين الصفين، ثم غاب وتوارى فلم نشعر به ولم يعرفه أحد لأنه كان مُلَثَّم ووجهه مغطّى، فإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله لا تُحدّث بهذا أحداً وأنا حيّ[2]. هكذا كان بن المبارك فارساً شجاعاً ذا خبرة في فنون القتال والمبارزة مع حرصه أن لا يُرى موقعه من القتال، كل ذلك ورعاً وحِسبَةً لله وحده. فأين بعض الذين يَدّعون العلم في زماننا والذين نرى من بعضهم الجُبن بل ومناهضة المجاهدين والمقاومين في فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام.

النَّسّب ليس مُهِمًّا:

لم يكن عبد الله بن المبارَك من أصحاب النسب العالي فلم يكن رحمه الله من الأُسَر العظيمة كالملوك والعظماء والوزراء كما لم يكن من عائلة بها كبار العلماء بل كان أبوه مولى من الموالي - والمولى هو العبد الذي تحرر من العُبُوديّة إلى الحُرّيّة- في الإسلام لا يوجد ما يُسمّى بالتمييز العنصري أو

(١) جنديّ نصرانيّ من جنود الروم.
(٢) تاريخ بغداد: (١٦٧/١٠)، سير أعلام النبلاء: (٣٦١/٨).

العُنصريّة الموجودة في عصرنا في أكثر بلاد العالم المعاصر سواء مسلمة أو غير مسلمة، وذلك ببساطة لأنّ الإسلام حرّم هذه العنصرية فلا فضل لأحدٍ إلا بتقوى الله ومدى التزامه بالإسلام الذي يُمثّله ويعيشه واقعًا في حياته وفي تعاملاته مع الناس جميعاً مسلمين أو غير مسلمين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [سورة الحُجُرات: ١٣].

ويقول الرسول ﷺ:"**يا أيُّها الناسُ إنَّ ربَّكمْ واحِدٌ ألا لا فضلَ لِعربيٍّ على عجَمِيٍّ ولا لِعجَمِيٍّ على عربيٍّ ولا لأحمرَ على أسْودَ ولا لأسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقوَى إنَّ أكرَمكمْ عند اللهِ أتْقاكُمْ**" [رواه أحمد وغيره وصححه الألبانيّ].

ولذا يجب على العلماء والدعاة والمصلحين أن يوضحوا للناس جميعاً خصوصاً في هذه الأزمان التي انقلبت فيها الموازين، وانتكست فيها المفاهيم، يجب إيضاح أن اللون والجنس لا اعتبار لهما أبدًا في ديننا الإسلاميّ، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث من زواجٍ مع الصحابيّ الجليل سيدنا بلال بن رباح - وقد كان عبداً حبشيًّا أسود اللون- حيث أنّه تزوج أخت الصحابي الجليل صاحب الحَسَب والنَّسَب عبد الرحمن بن عوف وهو سيد من سادات قريش، وقد كان الحسن البصري أسود اللون ويلقب بسيد التابعين وهكذا كان يتعامل معه حتى أمراء وملوك الدولة الأموية، وهكذا يتساوى الجميع في الإسلام، ولا تفضيل لحرّ على عبد ولا عربيٍّ على عجميٍّ إلا بمعيار الإيمان والعمل الصالح، ويكفي لبيان ما وصل إليه هذا المعيار الإسلاميّ ما لسيدنا بلال بن رباح من مكانة سامية بالإسلام لدرجة أن عمر بن الخطاب الرجل الثالث في الإسلام قال عن أبي بكر وهو يصف مناقبه: قال عمر بن الخطاب: "أبو بكر سيدنا أعتق بلالا سيدنا، وهذا سيدنا بلال حسنة من حسناته".

كان والد عبد الله بن المبارك مولى من الموالي الذي دخل بلاد الاسلام واعتنق هذا الدين وتشرف به، كيف لا وشرف العقيدة أسمى وأغلى من أي شيء كيف لا وهو قد صار مسلما وليًّا لله بإسلامه، كان حارسا أجيرًا في بستان فيه الفواكه كالرمان والعنب والتفاح وغيرها من أشجار الفاكهة، فجاء صاحب البستان يومًا، وقال له: "أريد رمانًا حلوًا"، فمضى إلى بعض الشجر، وأحضر منها رمانًا، فكسره فوجده حامضًا، فغضب عليه، وقال: "أطلب الحلو فتحضر لي الحامض؟ هات حلوًا"، فمضى، وقطع من شجرة أخرى، فلما كسرها وجده أيضًا حامضًا، فاشتد غضبه عليه، وفعل ذلك مرة ثالثة، فذاقه، فوجده أيضًا حامضًا، فقال له بعد ذلك: "أنت لا تعرف الحلو من الحامض؟"، ففال له المبارك: "لا يا سيدي"، فقال: "وكيف ذلك؟"، فقال: "لأني ما أكلتُ منه شيئًا حتى أعرفه"، فقال: "ولِمَ لَمْ تأكل؟"، قال: "لأنك ما أذنتَ لي بالأكل منه"، فعجب من ذلك صاحبُ البستان، وسأل عن ذلك فوجده حقًّا، فعظُم المبارك في عينيه، وزاد قدره عنده، وكانت له بنت خُطبت كثيرًا، فقال له: "يا مبارك، مَن ترى تزوَّج هذه البنت؟"، فقال: "أهل الجاهلية كانوا يزوجون للحسب، واليهود للمال، والنصارى للجمال، وهذه الأمة للدِّين"، فأعجبه عقله، وذهب فأخبر به أمها، وقال لها: "ما أرى لهذه البنت زوجًا غير مبارك"، فتزوجها المبارك، فأنجبت له عبدالله بن المبارك[1] شيخ العلماء وفقيه المحدثين وسيد العُبّاد والمجاهدين، هكذا كانت بعض صفاته، لأن الإسلام دين لا يعبأ ولا يهتمّ بأمور الجاهلية من التفاخر بالحَسَب والنَّسب بل ما يحصّله الإنسان من جميل الصفات والأخلاق والعلم والعمل بما شرعه الله للبشر.

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٣/٣)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣٦٢/٣).

السِّرّ في صلاح الأبناء:

إن من أعظم نِعم الله على عباده هي نِعمة الأولاد، وبصلاحهم تتمّ هذه النِّعمة على الوالدين وهذا الصلاح هو أهم ما يطمح إليه الوالدين ويرجون تحقّقه في أبنائهم، فبصلاحهم ينال الأبوين برّهم وإحسانهم ونفعهم في الدنيا والآخرة، إذ من المعلوم شرعًا أنه ما من صلاحٍ أو عملِ خيرٍ يقوم الأبوان تجاه الأبناء ويربُّونهم عليه، إلا وهو في ميزان حسناتهم يوم القيامة؛ لأن الولد من كسب وسَعْيِ أبويه، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ [النجم: ٣٩ -٤١].

فما من سجدةٍ يسجدها الأبناء، ولا حرفٍ يقرأوه، ولا تسبيحة يسبحونها، ولا عملٍ يعملوه إلا وللوالدين من ذلك الحظُّ الوافر والنصيب الكبير من كلّ هذا، ويجري هذا النفع لها بعد مماتهما. ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "**إذا مات ابنُ آدمَ، انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**".

وفي الحديث الصحيح: "**إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته.. وذكر منها: وولدًا صالحًا تركه**". بل يستمر نفعهم هذا لوالديهم ويجني الأبوان ثمار صلاح أولادهم حتى في الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "**إن الرجل لَتُرْفَعُ درجته في الجنة، فيقول: يا رب: أنَّى لي هذه؟! فيقول: باستغفار ولدك لك**"؛ [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني].

ومن المعلوم للجميع أن كل عملٍ ذا ربحٍ كبيرٍ فإنه يحتاج إلى صبرٍ ومصابرةٍ وتعب شديد ومشقة كبيرة؛ فلا بد أن نعلم جميعًا كآباء ومربّين، أن تربية الأولاد والعناية بهم خاصة في هذا الزمان من أشقِّ الأمور، وأصعبها وأعقدها، لكنها لا تكون كذلك عند من يسَّرها الله عليه ووفقه الله لها وعلِمَ

أجرها وعاقبتها، وليعلم الآباءُ والمُربّون أن الهداية إنما هي بيد الله وحده، والدليل على أن كل شيء بيد الله كفر زوجة وولد نوح وكفر والد سيدنا إبراهيم عليه السلام وغير ذلك من النماذج الصالحة وأبنائها أو آبائها غير صالحين، وأن ما علينا فقط هو الأخذ بالأسباب المشروعة والاجتهاد في تربيتهم.

كما يجب علينا أن نعلم أن المعاناة في التربية هو من أفضل وأهم أنواع من الجهاد والطاعة، وكل هذا الجهد والعناء لا يضيع عند الله في الدنيا والآخرة، فقد جاء عن بعض السلف: "إن من الذنوب ما لا يكفِّره إلا همُّ الأولاد وحُسن تربيتهم "، فإن الإنسان إذا ما عَرَف أنه وهو في معاناة التربية للأبناء في عبادة يُؤجَر عليها، كما يُؤجَر على سائر العبادات فإن المعاناة تهون عليه.

ولعلّ من أسرار وأسباب صلاح الأبناء – بعد فضل الله وحده وإرادته – هي:

١- صلاح الآباء مع الأخذ بأسباب الإصلاح للأبناء. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "إذا اعتبرت الفساد في الأولاد، رأيت عامَّتَه من قِبَلِ الآباء". ولهذا فإن من الحِكَمِ التي شُرِعت لأجلها صلاة النافلة في البيت، قالوا: حتى يتعلم الأولاد الصلاة عمليًّا من الوالدين. وكان سعيد بن المسيب رحمه الله يقول لابنه ناصحًا ومذكِّرًا: "إني لأزيد في صلاتي من أجلك؛ رجاءَ أن أُحْفَظَ فيك". بل ينتفع بصلاح الوالدين الأبناءُ والأحفادُ، والفروع مهما نزلوا. قال الله تعالى: **﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾** [الكهف: ٨٢]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "حفِظهما الله بصلاح والدهما"، قال ابن المنكدر رحمه الله: "إن الله لَيحفظ بالرجل الصالح ولدَه وولدَ ولدِه والدُّويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر".

٢- ومنها اختيار الوالد للزوجة الصالحة التي ستكون بعد ذلك أُمًّا لأولاده وهي التي تقوم على تربيتهم بما عندها من مقوّمات التربية الصالحة.

٣- ومنها كون الأب والأُمّ صالحَيْن يعملان الأعمال التي تُرضي الله سواء في الأعمال الحياتيّة اليومية أو العبادات والأوامر الشرعية التي أمر الله بها.

٤- كذلك من أسرار صلاح الأولاد تَحَرّي الحلال والبحث عن الرزق الطيب والامتهان بالمِهَن الشريفة المشروعة والمباحة واجتناب ما لا يُرضي الله من المطعم والمشرب.

٥- ومن أهمّ الأسباب كذلك: التزام الهَدْيِ النبوي في التعامل مع الصغار: فالخير كل الخير في التأسّي بهَدْيِ النبي ﷺ؛ فقد كان تعامله وتعليمه للصغار مبنيًّا على الشفقة والرحمة، وكان يعبِّر لهم عن ذلك بقوله وفعله صلى الله عليه وسلم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال: (**يا غلامُ، إني أعلِّمك كلماتٍ: احفظِ الله يحفظْكَ، احفظِ الله تجدْهُ تجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمةَ لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأقلام، وجفَّت الصحف**)؛ [رواه الترمذي وغيره]، هكذا كان يعلمهم مدى توكلهم على الله وفقط.

٦- إظهار محبتهم والشّفقة عليهم وممازحتهم، والاهتمام بهم. ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: (قدِمَ ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ فقال: نعم، قالوا: لكنا والله ما نُقَبِّل، فقال رسول الله ﷺ: (**أو أمْلِكُ إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة**). وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن الأقرع بن حابس أبْصَرَ النبي ﷺ يُقبِّل الحسن، فقال: إن لي عشرةً من الولد ما قَبَّلتُ واحدًا منهم، فقال رسول

الله ﷺ: إنه مَن لا يَرْحَم لا يُرْحَم). وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه، قال: (كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلُقًا، وكان لي أخٌ يُقال له أبو عُمَيرٍ، وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير، ما فعل النُّغَير؟) قال أنس: "ما رأيت أحدًا كان أرحمَ بالعيال من رسول الله ﷺ"، ومن رحمته ﷺ بالصغار، أنه كان يزور الأنصار، ويسلِّم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم، ويدعو لهم بالرزق والبركة.

٧- كذلك من أسبا إصلاح الأبناء تصحيح أخطائهم بالرفق واللين بلا تجريح، إلا في موضعه ففي الصحيحين عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه، قال: (كنت غلامًا في حِجْرِ رسول الله ﷺ، وكانت يدي تَطِيش في الصَّحْفَةِ، فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلامُ، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك، قال: فما زالت تلك طعمتي بعد). وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺمن أحسن الناس خُلُقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أُمرَّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أُنَيْسُ، أذهبتَ حيث أمرتُك؟ قال: قلت: نعم، أنا أذهب، يا رسول الله). ولم يعنفه ﷺ، بل حتى في الصلاة، يتحمل ﷺ لعب الأطفال ولهوهم؛ مراعاةً لمشاعرهم. روى الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن عبد الله بن شداد، عن أبيه رضي الله عنه، قال: (خرج النبي ﷺ إلى الصلاة، وهو يحمل الحسن أو الحسين، فلما صلى أطال في إحدى سجداته، فلما قضى صلاته، قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك هذه سجدةً قد أطَلْتُها، فظننَّا أنه قد حدث أمر، أو أنه يُوحى إليك، قال ﷺ: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرِهت أن أُعْجِلَه حتى يقضيَ حاجته). هكذا كان تعامله ﷺ مع الأطفال حتى نتعلم ونتأسّى به ومن ثمّ يخرج لنا أبناءً صالحين بإذن الله.

٨- من أهمّ الأسباب المعينة على صلاح الأولاد: الإكثار من الدعاء لهم بالهداية والصلاح: في السنن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **(ثلاث دعوات يُستجاب لهن، لا شكَّ فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد لولده)**؛ [رواه أبو داود، والترمذي] وهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام، يسأل ربه الولد الصالح فيقول: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٠]، فيأتيه الجواب: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾ [الصافات: ١٠١]. وبعد أن رُزِقَ بالولد الصالح، لم ينقطع دعاؤه لأبنائه، فقال: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ**﴾ [إبراهيم: ٤٠]. ولْيَحْذَرِ الوالدان من الدعاء على الأولاد بحُجَّة أن الأولاد يُغضبونهم، أو تعزيرًا للأبناء عند الوقوع في بعض الأخطاء. ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خَدَمِكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله تبارك وتعالى ساعةً نَيلٍ فيها عطاء، فيستجيب لكم**). وفي رواية: (**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاء، فيستجيب لكم**)، وهذا ما يجب على الآباء فعله والنتائج من الله لكن علينا الأخذ بأسباب الإصلاح لأبنائنا وبناتنا.

الوالد الصالح يخرج منه ولد صالح:

المبارك نموذج للوالد الصالح الذي أنجب ولداً صالحًا حيث كان والد عبد الله بن المبارك يعمل أجيراً بسيطا في أحد بساتين رجل من الأثرياء، وكان أجره زهيد جدا وكان يبدأ عمله من الصباح الى الليل يتخلل هذا العمل الشّاقّ المُضني فترة راحة بسيطة، ماذا كان يفعل الوالد الصالح "المبارك" في هذه الفترة اليسيرة بعد هذا كُلّ هذا التعب؟؟ لم يكن يذهب إلى النّوم أو إلى

المقاهي أو إلى السَّمَر مع الأصدقاء ويُضَيّع وقته هنا أو هناك، أبدًا لم يكن هذا ليحدُث لأنه صاحب هِمّة عالية في العبادة، وهِمَّةٍ أعلى في إصلاح الأبناء، لذا كل وقت استراحته كان يُصَلّ فيها النوافل بعد الفرائض، كما أنه لا تمرّ ساعة إلا ويذكر الله فيها فلا يفتر لسانه عن ذِكْر الله، كما كان - رحمه الله - اذا استلم راتبه من سيده تصدق بثلث راتبه هذا كان ديدَنُه، وهكذا الإسلام عندما يدخل القلب ويستقرّ فيه فإنه يفعل الأعاجيب بصاحبه مما يجعله متصِلاً بربه اتصالاً يكون بسببه وليًّا من أولياء الله، ومن ثم كل أعماله تكون موافقة لما أراده الله، فكان يعطي ثلث راتبه صدقة وحِسْبَةً لله سبحانه ورجاء إصلاح أبنائه وقد تمّ له ما أراد، كما أنه كان ينفق ثلث راتبه على أهله والثلث الأخير كان يستثمره لأهله.

- دخل صاحب البُستان يوما ما على والد عبد الله بن المبارك ومعه أحد أصدقائه فقال لحارسه - المبارك - ائتنا برُمَّان حُلو، فجاءهم -المبارك - الحارس- بِرُمّان حامض فوضعه بين يدي سيّده، فلما ذاقه قال هذا حامض ائتنا بغير هذا يكون حُلو، فذهب مرةً أخرى فجاءه بِرُمّان فاذا هو حامض، فقال له أقول حُلو وتأتني بحامض؟ ألا تعرف الحُلو من الحامض وأنت في البُستان منذ كذا وكذا من الوقت؟ فقال له يا سيدي والله منذ أن جعلتني حارسا للبُستان من كذا وكذا سنة وأنا ما ذُقت منه أي فاكهة منه فأنت يا سيدي لم تأذن لي أن أذوقه أو آكل منه، لذا أن لا أعرف الحلو من الحامض، أيّ وَرَعٍ هذا؟ وأيّ عبادة لله ومعرفةٍ به؟ بل أي مراقبة لله ورجاء فيه وخوفٍ منه سبحانه؟ كل هذه الصفات وربما أكثر منها كانت في الوالد العظيم المُبارك فقد كان اسما على مسمى مبارك، فلا عَجَبَ أن يكون الابن هو المحدِّث العظيم شيخ الإسلام وشيخ المجاهدين عبد الله بن المبارك، وهنا نتذكّر قوله تعالى (وكان أبوهما صالحاً) وأنها تنعكس على أولادنا في دينهم ومن ثم في سلوكهم، وكل هذا نراه

إذا اتقينا الله وسرنا في طريقه فنرجو أن يكون أبنائنا بفضل الله كابن المبارك.

ابن المبارك وماذا قيل عنه:

دعونا الآن نعود إلى أمير المؤمنين وصالح الصالحين عبد الله بن المبارك الشابّ الذي نما وترعرع شابا فصيحا ذكيا وإن كان رحمه الله ليس بعربيّ إلا أنه أتقن العربية وعلومها لكنه تعلمها وصار فصيحا حتى كان في صفوف الشعراء الفصحاء البُلغاء الذين كانت أشعارهم تُحرك القلوب نحو الخالق سبحانه وتأخذ بالألباب نحو العمل والزهد والجهاد في سبيل الله، كما كانت أشعاره تسير بها الرُّكبان في الأمة الإسلامية من مشرقها إلى مغربها كما كان طلاب العلم يرحلون إليه لعلمه وورعه وأخلاقه، فقد عاش رحمه الله عالِما كبيراً في الحديث وغيره من العلوم الشرعية، حيث تتلمذ على يد الكثير من علماء الحديث والفقه وغير ذلك من مختلف العلوم، فقد كان صاحب همَّة عالية وموهبةٍ كبيرة في الحفظ حتى أنه كان يحفظ من الحديث الشريف بمئات الألاف وفي هذا يجب على كل مَن رزقه مثل هذه الموهبة عليه أن يغتنمها في التعليم والتعلم سواءً ما يكون في العلوم الشرعية أو الحياتية كاللغات الأخرى كأن يُحسن عدد من اللغات، أو عدد من العلوم الحديثة كالبرمجة والحاسوب وغيرها مما صارت من الأهميّة بمكان خاصة في زماننا الحاضر، فلا يكون أصحاب المواهب الآن ممن يستبدلون الذي هو أدنى من اللهو واللعِب والنوم والسهر فيما لا يفيد حتى وإن كان مباحاً فصاحب المبدأ وصاحب الهدف الكبير لابد وأن تكون غايته أكبر وهِمَّته أعلى وأعظم، فكما قال المتنبي:

إذا غـــــــامَرتَ في شَرَفٍ مَـــــــروم

فَـــلا تَقنَـــــــع بِمـــا دونَ النُجـــومِ

فَطَعـــمُ المَـــوتِ في أَمـــرٍ صَـــغير
كَطَعـــمِ المَـــوتِ في أَمـــرٍ عَظـــيمِ

وكقوله في موضعٍ آخر عن أهل العزم والحزم والهِمم العالية وأنها لا تكون سهلة:

عَـلى قَـدرِ أَهـلِ العَـزمِ تَـأتي العَـزائِمُ
وَتَـأتي عَـلى قَـدرِ الكِـرامِ المَـكارِمُ
وَتَعظُـمُ في عَـينِ الصَـغيرِ صِـغارُها
وَتَصـغُرُ في عَـينِ العَظـيمِ العَظـائِمُ

وأنّ العُلا والمجد والوصول للغاية المنشودة لابد لها من صَبرٍ شاقٍّ ومضني، وعملٍ دؤوبٍ دون كللٍ أو ملل وأخذٍ بالأسباب بعد حُسن التَّوكل على الله وحده على غِرار قول الشاعر:

دَبَبْـتُ للمجـدِ والسـاعون قـد بلغـوا
جَهْـدَ النفـوس وألقَـوا دونـه الأُزُرا

وكـابدوا المجـد حتى ملَّ أكثرُهـم
وعـانقَ المجـدَ مَـن أوفى ومَـن صَـبَرا

لا تحـسَبِ المجـدَ تمـرًا أنـتَ آكلُـه
لـن تبلـغَ المجـد حتـى تلعَـق الصَّـبِرا [1]

(١) معنى هذه الأبيات: أي لا تحسب يا صاحب الهدف العالي وتريد أن تصل إليه، لا تظن أن المجد شيئاً سهلاً أو تمراً تأكله وأنت جالس بلا تعب، بل لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرِ وهو الحنظل الحامض الذي لا يطاق ولا يؤكل. فلا بد مع الموهبة التي من الجِدِّيّة والإرادة الشديدة.

كان عبد الله بن المبارك صاحب الهِمَّة العالية التي عانقت السماء حتى صار لا يستطيع الكثير من أهل الفضل أن يصلوا إلى ما وصل إليه من زهد وورع وعلم وعمل، حتى قال الحسن بن عيسى مولى ابن المبارك: اجتمع جماعة مِثل الفضل بن موسى، ومخلد بن الحسين، فقالوا: تعالَوْا نعُد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والفصاحة، والشعر، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والقوة، وترك الكلام فيما لا يَعنيه، والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه. قال عنه عبدالرحمن بن مهدي: ما رأت عيناي مثل أربعة، ما رأيت أحفظ للحديث من الثوري، ولا أشدَّ تقشفًا من شعبة، ولا أعقلَ من مالك، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك؛ و قال محمد بن المعتمر بن سليمان: قلت لأبي: يا أبت، مَن فقيه العرب؟ قال: الثوري، فلما مات الثوري، قلت لأبي: مَن فقيه العرب؟ قال: عبدالله بن المبارك؛ قال إسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك، ولا أعلم أن الله خلق خَصلةً من خصال الخير، إلا وقد جعلها في عبدالله بن المبارك، وقال أبو إسحاق الفزاري: ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين. قال يحيى بن يحيى الليثي: كنا عند مالك، فاستُؤذِن لعبدالله بن المبارك بالدخول، فأذِن له، فرأينا مالكًا تزحزح له في مجلسه، ثم أقعده بجواره، وما رأيت مالكًا تزحزح لأحد في مجلسه غيره، فكان القارئ يقرأ على مالك، فربما مرَّ بشيء، فيسأله مالك: ما مذهبكم في هذا؟ أو ما عندكم في هذا؟ فرأيتُ ابن المبارك يجاوبه، ثم قام فخرج، فأُعجِب مالكٌ بأدبه، ثم قال لنا مالك: هذا ابن المبارك، فقيهُ خراسان؛ وقال أحمد بن حنبل: لم يكن أحد في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه، وقال عبد الوهاب بن عبد الحكم: لما مات ابن المبارك، بلغني أن أمير المؤمنين هارون الرشيد قال: مات سيد العلماء[1].

(١) حلية الأولياء (١٦٣/٨)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، (٣٨٨/١١)، سير أعلام النبلاء، (٣٨٤/٨). تاريخ دمشق (٤٢٩/٣٢).

من أقوال عبد الله بن المبارك- رحمه الله-: "من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السّنن. ومن تهاون بالسّنن عوقب بحرمان الفرائض. ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة". ومن أقواله أيضاً: "إذا غلبت محاسنُ الرَّجل على مساوئه لَم تُذكر المساوئ، وإذا غلبت المساوئ عن المحاسن لَم تُذكر المحاسن" وسئل عبد الله بن المبارك رحمة الله عليه: "مَن النّاس؟ فقال: العلماء، قيل له: فمَن الملوك؟ قال: الزُّهّاد، قيل له: فمَن الغوغاء؟ قال: خزيمة وأصحابه يعني: [أحد الأمراء الظلمة في زمانه] قيل: فمن السّفَلة؟ قال: الذين يعيشون بدينهم)، وقال الإمام أحمد: "لَم يعبر الجسر من خراسان مثل إسحاق يعني ابن راهويه، وإن كان يخالفنا في أشياء؛ فإنَّ الناسَ لم يزل يخالف بعضُهم بعضاً" وأخرج الخطيب البغدادي بإسناده إلى إسماعيل بن عياش قال: ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك، ولا أعلم أن اللخ خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك، ومن أقواله أيضاً أنه قال من استخفى بالعلماء ذهبت آخرته و من استخفى بالأمراء ذهبت دنياه و من استخفى بالإخوان بالأصدقاء ذهبت مروءته[1].

وعن عبادة ابن المبارك التي يجب علينا الآن أن نتعلمها ونعلمها من نحب: أنه كان إذا صلى العصر دخل غرفته واغلق عليه الباب واخذ يقرأ القرآن ثم يجلس يكتب الأحاديث فقد كان يعيش وحده فترة يختلي بنفسه ربه، وهذه من صفات العظمة التي يجب على الجميع عامة والشباب خاصة أن ينتبهوا لها ويتصفوا بها، فليس من صفات الفرد المسلم الذي يريد لنفسه وأمته التقدم والرُّقيّ والازدهار أن يكون مشغولاً دائماً مع الناس بل لابد أن

(١) سير النبلاء للذهبي، (٣٥٢/٨). رفقا أهل السنة بأهل السنة، عبد المحسن البدر (ص: ٣٧). تاريخ بغداد: ١٥٧/١٠.

يكون له خلوة مع نفسه وربه، وخلوة يتعلم فيها ويتأمل كما كان ابن المبارك الذي كان يجلس فترة طويلة فيقال له ألا تستوحش؟ فيرد بقوله كيف استوحش؟ وأنا مع القرآن والحديث والسيرة النبوية ومع الصحابة قراءة في الكتب والعمل كما كانوا يعملون، هذا فعلاً هو الجيل الرائع الذي غير التاريخ بل غير وجه البشرية إلى الأفضل. وعن أشعث بن شعبة المصيصي، قال: قدم هارون الرشيد الرقة، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين الرشيد من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس، قالت: ما هذا؟، قالوا: عالم من أهل خرسان قدم الرّقّة، يقال له عبد الله بن المبارك، فقالت: هذا والله المُلك لا مُلك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرَط وأعوان والله هو المُلك لا مُلك الذي يُجمع الناس له بالسياط والسيوف، أما هذا -ابن المُبارك - يجمعهم بالحُب يجمعهم بالولاية يجمعهم بالرسالة يجمعهم بالعلم[1].

قال سفيان: إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام. سأل رجل سفيان الثوري عن مسألة، فقال له من أين أنت؟ قال: من أهل المشرق. قال: أوليس عندكم أعلم أهل المشرق؟ قال: ومن هو يا أبا عبد الله؟ قال: عبد الله بن المبارك. أعلم أهل المشرق والمغرب. هذه الدرجة التي وصل اليها من العلم والحديث والجهاد فقط، بل كان بالإضافة لكل هذا كان في منتهى الأخلاق والكَرَم وقد وصل في الكرم الى درجة كبيرة لا توصف، كان عبد الله بن المبارك يحجّ سنة ويغزو سنة، فإذا أراد أن يحجّ بعث من ينادي في الناس: إن ابن المبارك يريد الحجّ فمن يحبّ أن يصحبه فليأتِ إليه، فيجيئه الناس أفواجاً فيقول لهم: نجعل نفقتنا

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي (٢/ ٣٢٥).

شركة، فإن البركة فيها أكثر، فيعطيه كل واحدٍ منهم ما معه من النقود في صرّة يصرّها يكتب عليها اسمه، ثم يذهبون معه، فكلّما نزل منزلاً أعدّ لهم أطايب الطعام، ويأكل هو مِن زُهده -مع غناه- طعاماً دونهم، ثم إذا أنهوا حجّهم قال لهم: انظروا ماذا تريدون أن تُهدوا إلى ذويكم وإلى أصدقائكم لأشتريه لكم ثم أحاسبكم عليه. فيشتري كلٌّ منهم ما يريد، حتى إذا ما رجعوا إلى بلادهم أقام وليمة كبيرة، ثم أعاد لكل منهم صرّته التي فيها نقوده وكانت السفرة كلّها على حسابه[1].

من أهم مواقف ابن المبارك الذي يدلّ على جَمْعِه بين العلم والعمل والجهاد الحوار الذي دار بينه وبين العابد الكبير، والزاهد المتصوّف الفضيل بن عياض عابد الحرمين، يسأل ابن المُبارك لو تفرغت للعبادة وتعليم الناس ربما أفضل لك فهذا كالجهاد في سبيل الله، فأجابه ابن المبارك بأبيات من الشِّعر غاية في الجزالة والروعة وحُسن التعبير عن حقيقة ما يرمي إليه الإسلام.

يـــا عابـــد الحـــرمين لـــو أبصـــرتنا
لعلمـــت أنـــك في العبـــادة تلعـــب
مـــن كـــان يخضـــب جيـــده بدموعـــه
فنحورنـــــا بـــــدمائنا تتخضّـــــب
أو كـــان يتعـــب خيلـــه في باطـــل
فخيولنـــا يـــوم الصـــبيحة تتـــعب
ريـــح العبـــير لكـــم ونحـــن عبيرنـــا
رهـــج الســـنابك والغبـــار الأطيـــب

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي.

ولقـــد أتانـــا مـــن مقـــال نبينـــا
قـــول صـــحيح صـــادق لا يكـــذب
لا يســـتوي وغبـــار خيـــل اللـــه في
أنـــف امـــرئ ودخـــان نـــار تلهـــب
هـــذا كتـــاب اللـــه ينطـــق بيننـــا
لـــيس الشـــهيد بميـــت لا يكـــذب

فلما سمع الفضيل هذه الأبيات وهو في الحرم، بكى، ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونَصَح[1].

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة جاءه رجل وهو في سكرات الموت فجعل يلقنه الشهادة، ويقول له قل لا اله الا الله محمد رسول الله وأكثر عليه، -وهذا خلاف السُّنّة - فقال له ابن المبارك وهو في فراش الموت إذا لقَّنتَ من حضرته الوفاة (لا اله الا الله) فلا تعيدها عليه إلا إذا تَكَلّم بكلام أو أُغمي عليه فلَقِّنه مرة أخرى حتى يكون آخر كلامه لا إله إلّا الله، ولولا أنني أخشى أن تُؤذي أحداً بعدي ما أخبرتك، هذا الكلام وهذه الدعوة إلى الله وهو على فراش الموت وليس في خطبة جمعة أو في مكان ما يستريح فيه، وهذا على مدى حرصه – رحمه الله- على أداء ما عَلِمَه وتَعَلّمه لأنه يخشى أن يكون كَتَمَ عِلماً، أو أن هذا الرجل قد يؤذي أحداً بعده.

لم يكن ابن المبارك رحمه الله عالماً عابداً زاهداً وغير ذلك من الأعمال التي لا يستطيعها إلا الأفذاذ القلائل من الرجال، بل كان صاحب مصنفات غاية في الروعة، ومؤلفات كثيرة في علوم وفنون عديدة أشاد بها القاصي والداني

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٧/ ٣٨٦)

وكبار العلماء أيضاً، من هذه الكُتُب المهمّة التي ألّفها هذا العالِم الكبير عبد الله بن المبارك: كتاب "الجهاد" لابن المبارك. وكتاب "الزُّهد" وكتاب "الرقائق". كتاب مُسنَد في الحديث الشريف " مُسنَد" ابن المبارك. كتاب "المواعظ" وغيرها من الكتب الكثيرة والمفيدة في بابها.

ألا رحم الله عبد الله ابن المبارك هذا العَلَم العظيم الكبير الذي تعلّمنا من سيرته كيف تكون الهِمَّة العالية، وكيف تكون قوة الإرادة أصحاب الهِمم العالية في الوصول إلى ما يريدونه، كما تعلّمنا منه كيف يكون الاقتداء بالنبي ﷺ وأصحابه، وكيف يكون التوازن والتوسط في كل شيء، كما تعلمنا منه الغاية في الجود والكرم، وحُبّ العلماء وتوقيرهم، كما تعلمنا من سيرته الشجاعة والإقدام كما الزهد والورع، تلك هي القدوة لكل مَن يريد الاقتداء وخاصة جيل الشباب.

ما يستفاد من سيرة ابن المبارك:

- عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي المروزي، هو أحد أعلام الإسلام البارزين في القرن الثاني الهجري، جمع بين العلم، الزهد، الجهاد، والتجارة. كان قدوة في كثير من الجوانب الأخلاقية والعلمية.

- وُلد سنة ١١٨هـ في مدينة مرو (في تركمانستان الحالية) وتوفي في طريق عودته من الجهاد في مدينة هيت على نهر الفرات سنة ١٨١هـ.

- من أهم صفاته: اشتهر بالزهد والورع، وكان يُلقب بـ"إمام العلماء" و"أمير المؤمنين في الحديث". جمع بين العلم والعمل، والثراء وكان ينفق جُلّ ماله في سبيل الله.

- كان من أبرز المحدثين والفقهاء، فقد أخذ العلم عن كبار العلماء مثل:

سفيان الثوري، وأبي حنيفة، والأوزاعي. تتلمذ على يديه كبار الأئمة أمثال: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين.

- من أقوال العلماء عنه: قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: "ما رأيت أحدًا أعلم من عبد الله بن المبارك". وقال يحيى بن معين: "كان عبد الله بن المبارك إمامًا يُقتدى به".

- يستفاد من سيرته أنه يجب على المسلم وخصوصاً العلماء والدعاة ألّا يعيشوا لأنفسهم فقط بل لدينهم وأمتهم وأن يبذلوا في سبيل ذلك كل ما يستطيعون. قال ابن مهدي في وصف ابن المبارك (كان أنصح الأمة للأمة).

- إن الفهم الصحيح للزهد الذي هو الرغبة الصادقة فيما عند الله وترك ما عند الناس، وأن المال إنما هو لصّوْنِ العِرض والاستعانة به على طاعة الله وإعانة طلبة العلم والمحتاجين وهذا لا ينافي الزهد، وهذا ما جسده ابن المبارك عملياً، وأن ما نراه الآن بما يُسمّى زهد الصوفية الداعي إلى الكسل والخمول ليس صحيحاً.

الأسئلة:

١. من هو عبد الله بن المبارك؟ وما أبرز محطات سيرته التي أثَّرت فيك كقارئ لها؟

٢. ما هي أشهر صفات عبد الله بن المبارك التي عُرف بها؟ وكيف تتصف أنت بها؟

٣. ما أثر البيئة التي نشأ فيها ابن المبارك على شخصيته وعلمه؟

٤. ما أشهر كتب عبد الله بن المبارك؟ وكيف نستفيد منها في حياتنا العملية؟

٥. كيف كان ابن المبارك يوازن بين العبادة والعمل في التجارة؟

٦. ما هي أشهر مواقف عبد الله بن المبارك التي تدل على حبه للجهاد في سبيل الله؟

٧. ما الأثر الذي تركه عبد الله بن المبارك على العلماء والفقهاء الذين جاؤوا بعده؟

٨. ما طبيعة العلاقة بين عبد الله بن المبارك والفقهاء والعلماء في عصره؟

٩. ما أبرز الأقوال والحِكَم التي نقلت عنه؟

١٠. اذكر أهم ما قيل في ابن المبارك وما دلالة ذلك من وجهة نظرك؟

***

٣- العزّ بن عبد السلام

حديثنا الآن ليس عن شخصية تاريخية لها دورها العاديّ الذي تُذكر به بين العلماء البارزين وحَسْب، بل عن شخصية عظيمة في الكثير من جوانب العظمة والإبداع، وفي الكثير من المجالات والفنون، شخصية تركت بصماتها في تاريخ أمة الإسلام منذ القرن السابع الهجير وحتى عصرنا الحاضر ينبغي للعلماء والدعاة خاصة، والشباب وعموم الأمّة عامة أن يقتدوا بمثل هذه الشخصيّات الفريدة، وأن يتعلموا من سِيَرِهم كيف يكونوا مثلهم كما كان النبيّ ﷺ وصحابته. هذه الشخصية هي أحد العظماء في الأمة. يُكْنَى بأبي محمَّد، ومن ألْقَابه التي اشتهر بها، فلقبُه الاسميّ عزّ الدين، ولقبُه العِلميّ والدّينيّ: شيخ الإسلام، ولقَّبه تلميذه (ابن دقيق العِيد)[١]، بِلَقَبِ (سُلْطَان العلماء) واشتُهر بهذا اللّقب؛ لجُرأَته في الحقّ، وقوّة جَنانه، وعلوّ كعبه في العلم[٢].

العزّ بن عبد السلام: هو الإمام الفذّ فريد عصره علماً وعملًا: أبو محمد عزّ الدين عبد العزيز ابن عبد السلام ابن أبي القاسم ابن الحسن السُّلميّ الشافعيّ شيخ الإسلام، وقاض القضاة، وشيخ الشافعيّة وفقيه المذهب في زمانه، والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مهما كلفه ذلك من صِعاب ومشاقّ، لم

(١) أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع، تقيّ الدين القشيري، المعروف كأبيه وجده بابن دقيق العيد: قاض، من أكابر العلماء بالأصول. أصل أبيه من منفلوط (بمصر) انتقل إلى قُوص، وولد له ابنه (صاحب الترجمة) بها سنة ٦٢٥هـ، ورَحَل وتعلم بدمشق والإسكندرية ثم استَقَرّ= =بالقاهرة. وولي قضاء الديار المصرية سنة ٦٩٥هـ الى أن توفي (بالقاهرة). له تصانيف كثيرة منها (إحكام الأحكام)، و (الإلمام بأحاديث الأحكام)، و (شرح الأربعين حديثا للنووي). وكان مع غزارة علمه، ظريفا، له أشعار وملح وأخبار. توفي سنة ٧٠٢ هـ الأعلام للزركلي، (٦/ ٢٨٣).

(٢) «الغاية في اختصار النهاية» (١/ ١٣).

يشغله العلم والفقه والمنصب الذي كان فيه عن مقاومة الظلم ومواجهة الحُكام الظالمين والجهاد ضد الأعداء، بل وظّفَ عِلمهُ وجاهه لخدمة دينه وأمَّتِه، سيرته ومواقفه في هذا كثيرة جداً يتطلع لها كل متشوق للعدالة والحُريّة.

ولد سُلطان العلماء العزّ بن عبد السلام سنة ٥٧٧ هجرية عاش في دمشق من بلاد الشام وعاش بها فترة طويلة ودرس وتعلّم فيها على يد العلماء الكبار أمثال: قرأ الأصول على الشيخ سيف الدين الآمدي، وسمع الحديث من الحافظ أبي محمد القاسم فخر الدين بن عساكر؛ أخذ عليه فقه الشافعيّة؛ بن الحافظ الكبير أبي القاسم ابن عساكر وشيخ الشيوخ عبد اللطيف بن إسماعيل البغدادي، وحنبل بن عبد الله الرُّصافي، والقاضي عبد الصمد بن محمد الحرستاني، وابن إبراهيم الخشوعي، وأبو الحسين بن الموازيني، وغيرهم، وخرَّج له الدمياطي أربعين حديثًا عوالي، وتتلمذ على يديه الكثير من العلماء المعروفين المشهورين منهم شيخ الإسلام ابن دقيق العيد وهو الذي لقب الشيخ عز الدين سلطان العلماء، والإمام أبو الحسن الباجي، والشيخ تاج الدين ابن الفركاح، والحافظ أبو محمد الدمياطي، والحافظ محمد بن يوسف بن مسدي والعلامة هبة الله القفطي وغيرهم[1].

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ سلطان العُلماء العِزّ بن عبد السلام في كنف أسرة فقيرة مغمورة وغير معروفة، لكنها كالكثير من الأُسَرِ المسلمة آنذاك متدينة ملتزمة بدينها ولم تكن ذا جاهٍ أو سلطان أو مكانةٍ علمية كبيرة، فقد كان أبوه فقيراً شديد الفقر وكان

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٢٠٩).

يأكل من عمل يده، وحين شب الطفل "العِزّ بن عبد السلام" بدأ بمساعدة أباه في بعض الأعمال الشاقة مثل إصلاح الطرق والتنظيف أمام محلات التجار، وعندما مات أبوه تعب جدّا ولم يجد من يؤويه، قيض الله له الشيخ "فخر الدين ابن عساكر" العالِم المعروف، فتوسَّطَ له لأن يعمل في الجامع الأموي في النظافة وغير ذلك، وينام ليلًا في أحد زوايا الجامع الأمويّ، وفي ظل هذه الظروف الصعبة لم يستطع "العِزّ بن عبد السلام" أن يطلب العلم في صِغَرِه كعادة الكثير من العلماء الذين طلبوا العِلم وهم صِغار السِّنّ، لكنه في أثناء عمله في الجامع الأمويّ كان يُشاهد حلقات العلم في الجامع بحكم عمله فيه، وكم كان يتمنى أن يكون بين طلاب العلم الذين يراهم في الجامع الأمويّ، لكن الله بفضله وكرمه لـ "لعِزّ بن عبد السلام" تَعَهَّده الإمام "ابن عساكر" وأمر بضمّهِ لحلقات العِلم وتعليمه القراءة والكتابة وحفظ القرآن، فأقبل "العِزّ بن عبد السلام" بشَغَفٍ كبير على التعليم وقراءة الكتب وحفظ القرآن، وفي فترة وجيزة - وبفضل الله وحده ثم شِدّة نَهَمه وإقباله على القراءة والعلم - عوّضَ ما فاته من بدايات العلوم المختلفة، ولما اطمأن " الفخر ابن عساكر" لمستواه العلمي الجيد، قام بِضَمّه لحلقته الخاصة حتى صار من أنجب طلاب حلقته.

موقف يدعوه لطلب العلم: رويَ عن الشيخ عز الدين أنه لم يشتغل بالعلم وهو صغير كما سبق، والسبب في ذلك أنه كان يبيت في جامع دمشق فبات ليلة ذات برد شديد فاحتلم فقام مسرعا ونزل في بِرِكَة الكلاسة فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام فاحتلم ثانيا فعاد إلى البِرِكَة، لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخروج، فأغمي عليه من شدة البرد، وقيل أن هذا حدث له ثلاث مرات تلك الليلة أو مرتين، ثم سمع النداء في منامه في المرة الأخيرة يا ابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل فقال الشيخ عز الدين، بل العلم لأنه

يهدي إلى العمل فأصبح وأخذ كتاب التنبيه في الفقه فحفظه في مدة يسيرة وأقبل على العلم والعمل فكان أعلم أهل زمانه ومن أعبد خلق الله[١]، حكى عنه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة رحمه الله أن الشيخ "العِزّ بن عبد السلام" لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل فأعطته زوجته مصاغا لها وقالت اشتر لنا به بستانا نصيف به فأخذ ذلك المصاغ وباعه وتصدق بثمنه فقالت يا سيدي اشتريت لنا قال نعم بستانا في الجنة إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه فقالت له جزاك الله خيرا، وحُكِيَ أنه كان مع فقره كثير الصدقات وأنه ربما قطع من عمامته وأعطى فقيرا يسأله إذا لم يجد معه غير عمامته[٢].

جوانب مُضيئة في حياة العِزّ بن عبد السلام:

نقف عند بعض جوانب مهمة في حياة هذا العالِم الكبير الموسوعي الفَذّ المعروف بـ (سُلطَان العلماءِ وبائع الأمراء) فهو بحق كان عالِماً موسوعياً في كثير من فروع العلم الشرعي، فهو من كِبار فقهاء الشافعيّة، وعالِم كبير في الحديث والتفسير، كما أنّه عالِمٌ لا يُشَقّ له غُبار في علم أصول الفقه وأصول الحديث.

يقول عنه ابن العماد الحنبلي[٣]: هو "عِزّ الدين شيخ الإسلام، الإمام العلَّامة، وحيد عصره، سلطان العلماء برع في الفقه والأصول واللغة العربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه

(١) الغاية في اختصار النهاية (١/ ١٣) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٢١٢).

(٣) عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، مؤرخ، فقيه، عالم بالأدب. ولد ١٠٣٢هـ. في صالحية دمشق، وأقام في القاهرة مدة، ومات ١٠٨٩هـ بمكة حاجًّا. له (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، و (شرح متن المنتهى) في فقه الحنابلة. «الأعلام للزركلي» (٣/ ٢٩٠).

واختلاف الناس ومآخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد وَرَحَل إليه الطلبة من سائر البلاد وصنَّف التصانيف المفيدة".

من مواقف العِزّ بن عبد السلام المشهورة المُشرّفة موقفه مع الأمير الصالح إسماعيل أمير دمشق لما اعترض عليه العزّ بن عبد السلام في تعاونه مع الصليبيين وتكلم عن حُرمة هذا التعاون وأن هذا منافٍ للإسلام القائم على عقيدة الولاء للمسلمين والبراء من الكافرين، فما كان من الأمير الصالح إسماعيل إلا أن قام بسَجْنه فترة طويلة ولما أطلق سراحه ترك دمشق ورحل إلى مصر، هذا الموقف من العالِم الكبير (سُلطان العلماء) العِزّ بن عبد السلام في مواجهة الظُّلم والظالمين لما تعاون حاكم دمشق الصالح إسماعيل مع الصليبيين لحرب أخيه نجم الدين أيوب حاكم مصر آنذاك، مقابل أن يعطي حاكم دمشق مدينتي صيدا والشقيف للصليبيين والسماح لهم بشراء السلاح من دمشق، وهنا يقف الشيخ العظيم العز بن عبد السلام يصدع بكلمة الحق التي قد تُكَلِّفه الكثير من المتاعب، فقام بالهجوم الشديد على الصالح إسماعيل على مِنبَر الجامع الأمويّ بدمشق وبحضور الحاكم نفسه، فتكلّم وقام بما يوجبه عليه الشّرع الحنيف من الوقوف في وجه السلطان الجائر الظالم، ولم يسكت ولم يأخذ بالرّخصة كما يردد المرجفون اليوم الذين يقولون بلسان حالهم ومقالهم (حتى لا نقف في طابور اللجوء نقف في طابور تأييد الطغاة)، وأصدر (سُلطان العلماء) فتواه التي اهتزت لها الدنيا والتي قال فيها بكل وضوح وقوة، إن الحاكم الصالح إسماعيل لا يمتلك المدن الإسلامية ليتنازل عنها للصليبيين ولا يجوز بيع السلاح للصليبيين لأنهم سيقتلون بها إخوانهم في الدين في مصر، لذا أفتى بحرمة ما فعله حاكم دمشق من تعاون مع الصليبيين المحاربين وحُرمة موالاتهم على حساب المسلمين خاصة في زمان الحروب مع المسلمين، حينما سمع الصالح إسماعيل حاكم دمشق بفتوى العز بن عبد السلام، قام مباشرة

بعزله من كل مناصبه كما يفعل أمثاله في كُلّ زمان ومكان للعلماء الربّانيّين الصادعين بالحق، ماذا فعل سُلطان العلماء عندما عزَلَه الصالح إسماعيل من منصبه؟؟ لم يبالي العِزّ بن عبد السلام بما حدث له مطلقا، ولم يقم بالتواصل مع ما يُسَمّى بالواسطة أو أيًّا مَن كان شأنه أو منصبه لأجل عودته للخطابة أو لأيّ منصبٍ عُزِل منه كما يفعل الكثيرون، فقد كان العز بن عبد السلام عزيز النّفس رفيع المقام محبًّا لدينه مُقَدِّمًا له على كل شيء حتى على نفسه، شُجاعًا مِقدَامًا في الحق لا يخشى في الله لومة لائم، ومما يبين هذا عمليًّا هذا الموقف العظيم العجيب، حيث أرسل الصالح إسماعيل للعِزّ بن عبد السلام رسولًا خاصًّا منه، فذهب رسول الصالح إسماعيل إلى العز بن عبد السلام، وقال مُحَذّرا مُرَغِّبًا ومُرَهِّبًا له: إن السُّلطان يقول لك بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتُقَبّل يده لا غير، فَرَدّ عليه العز بن عبد السلام في عِزّة الواثق بربه ودينه قائلًا لرسول السلطان: (والله يا مسكين ما أرضاه أن يُقبل يدي فضلًا أن أقبل يده يا قوم أنتم في واد وأنا في واد والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به)، فغضب منه الصالح إسماعيل وأَصَرَّ على عزله من إمامة الجامع الأمويّ وقضاء دمشق ولم يكتفِ بهذا بل أمر باعتقاله في سجن القلعة بها وقد قارب السبعين من عُمرِه، ثم أخرجه تحت ضغط الجماهير المُحِبة للحق والدين والتي تعلم أن المصلحة الحقيقِيّة للدعوة هي في الجهر بالحق وليس بتأييد الظالمين أو السير في طريقهم والرُّكون إليهم، هكذا هم العُلماء الرّبانيون الذين يأمنهم الناس على دينهم ودنياهم، وهذا موقف من مواقفه الكثيرة رحمه الله في دمشق ومصر.

كما أن له مواقفه العظيمة في مصر:

لما خرج الشيخ العز بن عبد السلام مهاجرًا من دمشق بعد موقفه من

تعاون حاكمها الصالح إسماعيل مع الصليبيين وعُمرُه حينها كان قد شارف على السّبعين، ومع هذا لم يُفَكّر في كِبَر سِنّه وشيخوخته أو أولاده وما سيحدث له ولهم، بل كان كُلّ هَمّه وجُلّ تفكيره هي مصلحة الإسلام والمسلمين وفقط، ولما وصل العز بن عبد السلام إلى مصر واستقبله حاكم مصر آنذاك السلطان نجم الدين أيوب[1] فقام إليه واحتفى به وولاه منصب القضاء والخطابة في مسجد عمرو بن العاص، ولكن الشيخ لا تثنيه المناصب عن مواجهة الباطل فقد لاحظ أن المناصب الكبرى والولايات العامة وإمارة الجيش بمصطلحنا المعاصر (محافظين وزراء ورؤساء الهيئات الحكومية) معظمها أو كلها كانت بيد المماليك الذين اشتراهم السلطان نجم الدين - حاكم مصر آنذاك - قبل ذلك فكان الحكم كله في أيديهم والكثير منهم لم يثبت تحرره من الرِّقّ. فما كان من قاضي مصر سُلطان العلماء العِزّ بن عبد السلام إلّا أن أصدر فتوى يقول فيها أن المماليك هم في حكم العبيد ولا يجوز لهم الولاية على الأحرار وعدم جواز ولايتهم وبالتالي يجب عَزْلهم جميعا من مناصبهم التي هي تحت أيديهم من قِبَل السلطان. إنها فتوى لها ما بعدها فهي بمثابة المواجهة النارية المحتومة بين الشيخ الذي لا يخشى إلا الله ولا يخاف في الله لومة لائم، مع هؤلاء المماليك الذين بأيديهم كل مقوّمات الدولة تقريبًا، والمعروف بمصطلحنا المُعاصر الآن -بالدولة العميقة-، فماذا حدث بعد هذه الفتوى؟ اشتَدّ غضب المماليك واجتمعوا واجمعوا أمرهم وقاموا بالتّوَجّه نحو سلطان العلماء العز بن عبد السلام لمحاولة إقناعه بالتخلي عن فتواه بالترغيب ولمّا لَم يَنفَع معه الترغيب، قاموا بترهيبه وتهديده بقوتهم العسكرية وأذرعهم المنتشرة في كل مناحي الدولة وأنه لن يستطيع الإفلات منهم بسبب هذه الفتوى، لكن العالِم

(١) هو الملك الصالح أيوب، ابن السلطان الملك الكامل محمد بن العادل، ولد سنة ٦٠٣ بالقاهرة، وتوفي في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ انظر: سير أعلام النبلاء، (٢٣: ١٨٧ ١٩٢).

الرّبّاني -الذي لا يخاف إلّا الله وحده - رَفَضَ رَفْضًا قاطعًا وأصَرَّ على موقفه وفتواه، فما كان من المماليك العسكريين إلّا أن قاموا برفع الأمر للسلطان نجم الدين أيوب، وأيضًا قام السلطان بِرَفض كلام شيخ الإسلام العِزّ بن عبد السلام وحاول أن يؤثر عليه بما له عليه من سُلطة ليغير فتواه لكن الشيخ لم يتراجع عما قاله وأفتى به، ولم يأسر الشيخ ما قام به الصالح نجم الدين أيوب من توليته المناصب الكبيرة التي منها قضاء مصر وإمامة أكبر المساجد في مصر، بل قال للسلطان وبكل وضوح أيها السُّلطان لا تتدخل في شئون القضاء الذي أنا أشغَله وأعمل به حتى يكون القضاء مُستَقِلًّا وحقيقيًّا وشرعيًّا، وانظروا للعالِم الرّبانيّ كيف يقف مع الحقّ ولا تأخذه في الله لومة لائم ولا يخاف على مناصبه ولا ما سيؤول إليه حاله بعد معارضته للسلطان طالما كان هذا في الحق الذي يُرضي الله، انظر الآن لمن يؤيدون الظلم والظالمين حتى نُدرك الفارق الكبير بين العلماء الرّبّانيّين وغيرهم من علماء السُّوء، ولمّا عَلِم الشيخ أنه لا يُسمَع لكلامه، ورأى أنه غير مرغوب فيه، وأنهم ماضون في طريقهم، قام بالاستقالة وخَلَعَ نفسه من كل منصب كان فيه، وكان القرار المحتوم أمَامه هو الرحيل عن مصر وفعلًا استَعَدّ للرحيل عنها وقال قولته المشهورة بالآية الكريمة من قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ فقام الكثير من العلماء والعوام من أهل مصر مع الشيخ وأيّدوه فيما أفتى به حتى أن الكثير من العلماء والصالحين قرّروا الرحيل معه. ولما علم الصالح نجم الدين أيوب بما فعله العِزّ بن عبد السلام حتى أسرع بنفسه لاسترضاء الشيخ – وهذا دليل على مكانة الشيخ عند السلطان وعند شعب مصر أيضًا ودليل على مدى التزام السلطان بدينه وحبه له والتزامه به- لكن الشيخ لم يقبل باسترضاء السُّلطان له ولم يرجع، بل اشترط بكل حزمٍ على السلطان أن يباع المماليك حتى

يتم عتقهم وبالتالي تجوز ولايتهم ويجوز لهم أن يكونوا وُلاة ووزراء، أمّا ثمن هؤلاء المماليك (الأمراء) فقد كان شراؤهم من بيت مال المسلمين إذن فلابد أن يُرَدّ المال الذي يباعون به إلى بيت مال المسلمين، فما كان من الملك الصالح أيوب إلا أن وافق على طلب العزّ بن عبد السلام، وقام بجمعهم وأعلن عنهم وبدأ ببيعهم في مزاد علنيّ، وكان لا يبيع الواحد منهم إلا بعدما يصل مشتريه إلى أعلى سعر، ولم يكن البيع من باب التحايل وإبرار قَسَمه كما يفعل الكثيرون، ولهذا قال بعض المؤرخين بأنه لم يحدث في التاريخ مثل هذه الحادثة، ولهذا أُطلِق على الشيخ العز بن عبد السلام لقب (بائع الأمراء). ومن مواقفه العظيمة في الصَّدع بالحق ذات يوم جمع السلطان سيف الدين قُطُز العلماء والقضاة والفقهاء ليشاورهم فيما يحتاجه للاستعداد لحرب التتار، وأنه بحاجة لفرض ضرائب جديدة على الشعب ليتمكن من الجهاد ومحاربة التتار، فوافقه على هذا أغلب الحضور، لكنّ العز بن عبد السلام - والذي قارب الثمانين من عمره آنذاك - أصدر فتواه التي لا يستطيعها إلا العالِم الرّبّانيّ الذي لا يخشى إلّا الله ولا تأخذه في الله لومة لائم، (قال إذا طرق العدو بلدًا من بلاد الإسلام وجب قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وبشرط أن يؤخذ كل ما لدى السلطان والأمراء من أموال وذهب وجواهر وحُليّ ويقتصر الجند على سلاحهم ومركوبهم ويتساووا مع العامة) [1].

فما كان من الأمراء وعلى رأسهم السلطان سيف الدين قطُز إلا أن فعلوا ما أفتى به الشيخ العِزّ بن عبد السلام.

(١) انظر: طبقات الشافعية، السُّبكي (٥: ٨٣)، صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء، سليم بن عيد الهلالي، ص٣١.

موقف آخر من مواقف الشيخ العِزّ بن عبد السلام الكثيرة التي تدلّ على عظمته وجُرأته في الحق.. أنه في يوم من الأيام وكان اليوم يوم عِيد خرج موكب السُّلطَان نجم الدين أيوب يتجوّل في شوارع القاهرة وكان العساكر من الجيش والشُّرطَة منتشرون على جوانب الطُّرُق والسيوف بأيديهم مُسلطة والموقف له هيبته التي تخيف الجميع، والناس وأصحاب الهيئات والأمراء والحاشية يقبّلون الأرض بين يدي السلطان هَيْبَةٌ وعَظَمَة وأُبَّهَة تجعل الجميع يُطأطِئ الرأس ويخاف على نفسه من سطوة السُّلطان.

(وكانت هذه من العادات السيئة الموجودة عند الأمراء والسلاطين في مصر آنذاك) فما إن رأى الشيخ الكبير صاحب الهِمَّة العالية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما كلفه ذلك، ما كان منه إلا أن انبرى للسلطان نجم الدين وناداه باسمه مجردًا بلا ألقاب وقال له بصوتٍ عالٍ مزلزل، يا أيوب: فالتَفَتَ السُّلطان بتَعَجّبٍ وذُهول، مَن هذا الذي تجرأ ونَسيَ نفسه وخاطبه باسمه بلا ألقاب ولا مقدمات؟ ثم قال له العِزّ: ما حُجَّتُك عند الله - عز وجل - غدًا إذا قال لك: ألم أُبوِّئ لك مُلك مصر ثم تبيح الخمور؟! فقال له: أوَ يحدُث هذا؟ فقال العِزّ: نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة التي أعطاك الله إيّاها، يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون والمشهد مهيب، الأنفاس محبوسة ماذا سيحدث للعز بن عبد السلام؟ لكن كان الرّدّ من السلطان نجم الدين رَدًّا يَنِمّ عن دين وخوفٍ من الله، قائلًا: يا سيدي أنا ما فعلت هذا إنما هو من عهد أبي. فَهَزَّ العز بن عبد السلام رأسه وقال: إذن أنت من الذين يقولون: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ**﴾ فقال: لا يا سيدي أعوذ بالله من هذا، وأصدر أمرًا بإبطالها فورًا ومنع بيع الخمور في مصر.

كان العِزّ بن عبد السلام – رحمه الله – في مجالسه يُدرِّس طلابه عُلوم الشريعة والحلال والحرام، كما كان يُعَلِّمهم عمليًّا الإقدام والشجاعة والجُرأة في قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضوابطه وشروطه مهما كلّفهم ذلك من معاناة ومشَقّة، ويُعَلّمهم الغيْرة على الدين مثلما كان يعلمهم الأحكام الفقهية، وهذا هو المطلوب من علماء الإسلام الربانيّين، إذ ما هي قيمة طالب العلم المسلم الحافظ للقرآن وكتب السُّنة وكتب الفقه وغير ذلك – وهذا مطلوب شرعًا وعقلًا وعرفًا لطالب العِلم- ومع كل هذ هو معدوم الغيرة على الإسلام، ولا يغضب لله ورسوله أو إذا انتُهكت الحرمات واعتديَ على الأعراض، ولا يَتَمَعَّر وجْهُهُ إذا رأى المنكر وفي النهاية ومع كل هذا نجده يَتَطَلَّعُ لمنازل الصِّديقين والشهداء؟ ما قيمة علمه إذن؟ وعندما رجع العز بن عبد السلام إلى مجلس درسه جاءه أحد تلاميذه يقال له: الباجي يسأل: كيف فعلت هذا مع السلطان؟ قال: يا ولدي رأيت السلطان وهو في أُبَّهَة وعظمة المُلك فخشيت أن تكبر عليه نفسه فتؤذيه فأردت أن أهينه حتى لا يتكبر على الناس. هذا هو العِزّ بن عبد السلام العالِم الكبير إنه لا يريد إحراجًا للسّلطان أو أنه يريد أن يقال عنه الرجل القويّ الشُّجاع، لا: بل كان كل هَمِّه أن يربي السلطان، وأن يقوم بإنكار مُنْكَرَيْن في آنٍ واحد: الأول: إغلاق الحانة التي يباع فيها الخمر. والثاني: هو إبعاد الغرور وجنون العَظَمة والأُبَّهة الذي بدأ يَكبر في قلب ونفس السُّلطان فأراد أن يُزِيله من قلبه، لهذا قال - رحمه الله-: "لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه". ولما سأله تلميذه الباجي: يا سيدي أما خِفْتَه؟ قال: "لا والله يا بني استحضرت عظمة الله وهيبته فرأيت السلطان أمامي كالقط[1].

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١٣: ٢٣٥)، طبقات الشافعية، عبد الوهاب السُّبكي، (٥: ٨١)، مواقف العلماء عبر العصور، سعيد بن وهف القحطاني، (ص: ١٢)، الأعلام، الزركلي، (٤: ١٠٢).

من خلال سيرة هذا العَلَم الكبير ومن مواقفه الجريئة: نجد أن من أبرز ما يميز الامام العِزّ بن عبد السلام ليس العلم الشرعي وفقط، مع أنه كان في أعلى وأرفع درجات العلم حتى اعتبره كثير من العلماء مجدد الدين في المائة السابعة، لكن أكثر ما ميزه حقًا هو شجاعته وجرأته في قول كلمة الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يقوم إلا الأفذاذ من العلماء الربّانيين.

وكان معروفًا عن سلطان العلماء بين الناس وخاصةً العلماء وطلاب العلم والدعاة، أن الإنسان إذا رأى مُنكرًا ويستطيع أن ينهى عنه ويصححه بشروطه وضوابطه بما لا يترتب عليه منكرا أكبر منه، فليصححه بهدوء وبدون إيذاء للآخرين، مع أن الأصل في الأمر بالمعروف والنهي يكون في السّرّ وليس علانية إلا لمن له الحق في هذا كالآباء وأولياء الأمور ومن بيدهم الحلّ والعقد، ويكون في أضيق الحدود وحسَب ما تقتضيه المصلحة وحسَب الظروف، على حد قول النبي ﷺ: "**مَن رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**" رواه مسلم. مع ضرورة تحقق رؤية المنكر وتحقق وقوعه، ثم يأتي تغييره بحسب درجات الاستطاعة الثلاث: تغييره باليد وباللسان وبالقلب، مؤكدا أن بعض المنكرات يكفي تغييرها باللسان ولا يتحقق ذلك إلا بمعرفة أنه منكر وبتحقق أصوله، وهذه الأحكام تختلف باختلاف الأشخاص، فقد يكون الشخص مضطرا لفعل منكرٍ معين، وبالتالي يكون خارج التكليف، وقد يكون سقط عنه التكليف بالجنون أو الإكراه، فلابد من معرفة الشروط والضوابط والموانع، ولا يكلف الله نفسًا إلّا وسعها.

ولعلّ بسبب ما فعله العِزّ بن عبد السلام من إنكارٍ للمنكر - بعد رضا الله - جعل العامّة قبل العلماء يلتفون حوله ويأتمنونه على دينهم وفتاويهم، عكس ما نراه من الناس تجاه الكثير من العلماء اليوم من الفجوة الكبيرة بين

العلماء وبين الكثير من الناس وعدم الثقة ببعض العلماء ويرون أن ليس لهم دور في الحياة ولا في حماية الدين، كما أن الكثير منهم انشغل بالقضايا الجزئية والفرعية وترك القضايا الأصلية الكبرى، وبمشاركة العلماء هموم الأمة الكبرى جاء التغيير للأفضل وتصحيح الأخطاء، وإجبار المخطئين على الرجوع إلى الحق وهذا الذي فعله الشيخ العظيم العِزّ بن عبد السلام، ولولا أن هذه المواقف موجودة ومسطرة في الكتب وصحيحة رواها الثقات لما صدقناها ولقال الناس إنها ضربٌ من الخيال، لكنها موجودة في كتب العلماء الثقات الذين عاصروه و عاشروه، وبعضهم شاهد عيان لهذه المواقف. كل هذا مع أنه - رحمه الله - تأخر سِنّه في طلب العلم، لكنه أخذ العلم باجتهاد ومثابرة حتى وصل إلى ما وصل إليه، والنداء هنا للشباب حتى وإن تأخرتم في طلب العلم فبفضل الله وتوفيقه ثم بالإرادة والجِدّ تستطيعون أن تصلوا إلى ما وصل إليه العِزّ وزيادة بإذن الله.

وليس هذا وفقط من أعمال العِزّ بن عبد السلام بل حَرَّك الأمراء والعامّة نحو قتال المغول، وذلك لما رأى أن المماليك يفكرون بعمل معاهدة وهدنة مع المغول وهم لا عهد لهم ولا ميثاق، رفض الهُدنة بشدّة وقال بل نحاربهم وذهب إلى قُطُز بنفسه فوعظه وحركه نحو القتال في سبيل الله، وصار شعار الحملة وا إسلاماه، وتحرك سيف الدين قطز وتحرك معه أمراء الجيش جميعًا وقام معهم الناس يُحركهم العلماء والدعاة وعلى رأسهم العالِم الكبير العز ابن عبد السلام، ومن ثم كانت معركة عين جالوت العظيمة والتي كانت سببًا في وقف المَدّ المغولي الهمجي، والتي قال عنها المؤرخون لولا معركة عين جالوت لسقطت أوروبا وأفريقيا في يد التتار لكنهم بفضل الله ثم بفضل العلماء وعلى رأسهم الشيخ العظيم الكبير العِزّ ابن عبد السلام أوقفوها...

ما يستفاد من سيرة العِزّ بن عبد السلام:

١. الجرأة والشجاعة المنضبطة في قول الحق:

عُرِف سُلطَان العلماء بشجاعته في قول الحق، وجُرأته في مواجهة الظُلم والظالمين حتى لو كانوا من الأمراء أو من عوام الناس. فقد واجه السلاطين والأمراء عندما خالفوا مبادئ الإسلام مهما كَلَّفه ذلك من مشاقّ ومصاعب، ومنه يتعلّم العلماء والمصلحون قول الحق والوقوف معه حتى في أصعب الظروف.

٢. الإصلاح يبدأ بالعلماء والدعاة:

كان الدّور الكبير للعِزّ بن عبد السلام قد خرج من كونه عالمًا معلّمًا للناس إلى أنه صار مصلحًا حقيقيًّا للمجتمع وأيقونة عظيمة في مواجهة الفساد والمفسدين. كما أظهر أن العلماء الرّبّانيّين ليسوا مجرد ناقلين للعلم فقط، إنما كانوا قادةً عِظامًا يوجِّهُون الأمة نحو العَدل والصلاح والإصلاح.

٣. الاعتماد إنما يكون على المبادئ لا على الأشخاص:

فقد رفض العِزّ بن عبد السلام الخنوع لأي إنسان مهما كانت سلطته وسطوته إذا كان ظالمًا أو مخالفًا للإسلام، وهذا مما يُستفاد من سيرته حيث التمسك بالإسلام والمبادئ، لا الانحياز للأشخاص مهما كانت مكانتهم.

٤. العلم النافع حقيقة هو الذي يتبعه العمل والإصلاح:

لذا فقد جمع سلطان العلماء بين العلم والعمل، فلم يكن عالما منعزلًا عن دنيا الناس وواقعهم، بل كان عِلمُه الذي تعلّمه يُطَبّقه على أرض الواقع وبه يسعى لإصلاح المجتمع حُكّامًا ومحكومين. وهذا يدلّنا على أن قيمة العلم الحقيقية في تحويله إلى ما يخدم المجتمع في دينه ودنياه.

٥. المصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة:

كان أهم أولويات العِزّ بن عبد السلام هو التركيز على المصلحة العامة للأمة، وهذا ما اتضح من خلال مواقفه الشرعية مع الأمراء أو عموم الناس. وهذا درس هام في تقديم مصلحة المجتمع على المصالح الفردية.

٦. الصبر والثبات من أهم العوامل في مواجهة المِحن:

فقد تعرض العِزّ للكثير من الضغوط والمشاكل من المجتمع تارة ومن الحُكّام تارة أخرى، لكنه رحمه الله كان صامدًا ثابتًا على مبادئه، مما يبرز لنا أهمية الثبات على الحق والصبر في مواجهة التحديات مهما كانت.

٧. الإيمان بالمسؤولية الاجتماعية والعمل بمقتضاها:

ظهر لنا من خلال شخصية العزّ بن عبد السلام أن العلماء منوطٌ بهم نصرة المظلومين والدفاع عن حقوقهم، وإصلاح أحوال المجتمع، وأن الدين ليس عبادة فردية فقط، بل رسالة هدفها بناء مجتمع عادل ومزدهر.

وختامًا:

فإن سيرة العِزّ بن عبد السلام تُلهِمُنا أن إصلاح المجتمعات لا يحتاج إلى علم نظريٍ فقط، بل يحتاج معه إلى الجُرأة والشجاعة، والعمل الدؤوب لخدمة المجتمع بالدين، كما يحتاج المجتمع إلى العلماء الثابتين على الحق والمبادئ، أكثر من عِلمٍ نظريٍ لا يقيم مجتمعٍ يسعى للتقدم أو العدل.

الأسئلة:

١. من هو العِزّ بن عبد السلام وكيف كانت بداية طلبه للعلم؟

٢. أين وُلد العز بن عبد السلام، وفي أي عام؟

٣. ماذا تعرف عن البيئة التي نشأ فيها، وكيف أثّرت على تكوينه العلمي؟

٤. مَن أبرز الذين تأثر بهم العز بن عبد السلام؟ وأبرز الذين تأثّروا به؟

٥. ما أبرز العلوم التي برع فيها العِزّ بن عبد السلام؟

٦. كيف تعامل العِزّ بن عبد السلام مع الحكام الظالمين؟

٧. ما هي القصة المشهورة التي ترتبط ببيعه للمماليك؟

٨. ما هو موقفه من الغزو التتري ومع مَن مِن الأمراء؟

٩. كيف أثرت مواقفه السياسية والاجتماعية في مجتمعه؟

١٠. لماذا لُقّب بسلطان العلماء ومن الذي لَقَّبه به؟

٤- أبو الفرج ابن الجوزي

اسمه ونَسَبُه:

هو الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن الجوزي[١] القرشي[٢] البكري[٣] البغدادي[٤] الحنبليّ[٥]، مولده ببغداد سنة ٥٠٨هـ وتوفيَ بها في رمضان سنة ٥٩٧هـ. وعمره ٨٩ سنة.

كان ابن الجوزيّ إمام الدُّنيا حفظًا وثقة، فصيحًا متبحرًا في كثير من العلوم مُصَنّفًا فيها، حتى وصلت تصانيفه لأكثر من مائتين وخمسين مُصنفًا، كما كان له قبول كبير وحضور واسع عند الخواص والعوام، وكان واعظ بغداد الأعظم، والأوفر حظًّا قُرابة سبعين سنة، كان رقيق القلب كثير البكاء، حريصًا على التصنيف[٦].

اليُتم مع الرعاية ليس عائقًا:

الناظر في تاريخنا الإسلامي يجد أن الكثير من العلماء العُظماء كانوا أيتامًا أي بلا أبّ يعولهم ويُنفق عليهم لكن لم يمنعهم يُتْمهم وموت عائلهم

---

(١) عرف بابن الجوزي نسبة إلى جده الأكبر الذي غَلَب عليه هذا اللّقب (الجوزي)، وذلك نسبة إلى "شجرة جوزة" على شاطئ دجلة قريب من بغداد. وقيل نِسبة إلى مَحِلّة ببغداد. «الأعلام للزركلي» (٣١٦/٣).

(٢) القُرَشِيّ: نسبة إلى انتهاء نسّبِه إلى قريش قبيلة الرسول ﷺ.

(٣) البكريّ: لأن نَسَبه ينتهي إلى سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ.

(٤) البغداديّ: لأنه ولد وعاش ومات ببغداد.

(٥) الحنبليّ: لأنه كان على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

(٦) سلم الوصول إلى طبقات الفحول، لمصطفى بن عبد الله العثماني المعروف بـ «حاجي خليفة» توفي ١٠٦٧هـ (٢٥٦/٢).

من الجِدّ والمثابرة وأن يكونوا في مقدمة العلماء الكبار، بل قد نجد أحيانًا أن هذا اليُتم كان سببًا كبيرًا في اعتزازهم بأنفسهم واستقلالهم عن الآخرين، وتحملهم للمسئولية مبكرًا، واعتمادهم على ربهم فقط، ثم بما في أيديهم من مقومات ولو كانت قليلة، من هؤلاء الأيتام العظماء الإمام الفَذّ أبو الفرج ابن الجوزي، حيث تُوفي أبوه وهو في الثالثة، فَكَفَلَته عَمَّته وذلك لزواج أمه، فنشأ ابن الجوزي يتيمًا يتنقل بين أقاربه الذين كانوا يعملون في تجارة النّحاس، فلما رأت عَمَّته منه عزوفًا عن التجارة دفعت به إلى طريق العلم.

وفي يومٍ من الأيام انتبهت عمته إلى القدُرات الهائلة التي يتمتع بها هذا الطفل النجيب عبد الرحمن ابن الجوزي، وما عنده من مواهب عظيمة، وذكاء كبير يدُلّ على عبقريّةٍ فَذّة عنده تحتاج إلى رِعاية ويجب أن تُستخدم وتُستَغَلّ هذه فيما يعود بالنفع عليه وعلى مجتمعه، فماذا فعَلت؟ لم تنتظر وقتًا طويلًا حتى يَكبر في السنّ وتضيع من عنده هذه الموهبة، ولم تأخذها الغِيرة عليه فلا تتكلم مع أمه وتنصحها باستغلال ما عنده من قُدُرات في العلوم النافعة؟ لكنها ذهبت مباشرة وتوجّهت به إلى طلب العلم حتى يُصبح عالِمًا كبيرًا ينفع نفسه وينتفع به الناس ويقوم بواجب العلم والدعوة إلى الله.

فقامت عَمَّته - التي اعتنَت به واحتضنته ورَبَّته - بعد أن كبر وترعرع-، حملته من لحظتها وأخذته وذهبت به إلى الشيخ أبي الفضل بن ناصر بأحد مساجد بغداد، بالمسجد الذي كان يُدَرّس فيه الشيخ، فأسمعه الكثير من وَعْظه، فأحب ابن الجوزي الوَعظ، ولهج به، وهو في سِنٍّ مبكّرة، فقام في الناس واعظًا وهو صبي، وكلّ هذا كان – بعد فضل الله- بسبب أبي الفضل بن ناصر هذا الشيخ المفضال الذي قام بالعناية به رعايته، جعلت من ابن الجوزي عَلَمًا كبيرًا من أكابر أهل العلم، ثم لزم كذلك حلقة الشيخ ابن الزغواني شيخ حنابلة

العراق، فظهر نجمه، وتقدم على أقرانه، وكان وهو صبي دينًا مجموعًا على نفسه لا يخالط أحدًا، ولا يجاري أترابه في لهوهم ولعبهم.

وهنا وقفة مهمّة: أن كلّ إنسان قد يَمُرّ بظروف خاصة أحيانا سواء أكانت هذه الظروف من الصِّغر أو على مراحل حياته المختلفة، كأن يولد يتيمًا أو يعتريه اليُتم بعد ولادته بقليل أو كثير، وقد يمرض مرضًا يمنعه من إكمال دراسته الأكاديمية، أو يفتقر بعد غِنًى، أو غير ذلك مما يعترض الإنسان على مدار حياته، لكن علينا جميعا عدم الاستسلام والرُّضوخ للواقع السيئ الذي يجعل الإنسان لا يستفيد مما هو متاحٌ له، وكيفية الاستفادة من هذه الظروف بما ينفع صاحبها وكذلك مجتمعه من حوله وبما يتناسب مع ظروفه الخاصة، وهذا الذي نستفيده من ظروف الإمام العظيم ابن الجوزي ومن توظيف أمه لهذه الظروف التي مرّ بها والاستفادة منها أكبر الاستفادة، حيث مات أبوه وهو صغير، لكنه حصل على الرعاية الكبيرة والاهتمام الكبير من أُمه والمقربين من حوله حتى وصل إلى ما وصل إليه في العلم، وفي حياتنا - في الغالب- نجد أنه ما مِن عظيم أو عالِم أو قائد أو تاجر، أو غير ذلك إلا وكان له اهتمام خاص به ممن حوله خاصة إذا ما رأوا فيه من نبوغ أو موهبة وذكاء يحتاج لرعاية خاصة. وهذا ما كان من شيخه الأول الشيخ العظيم والمُرَبّي الفاضل أبي الفضل بن ناصر.

بداية طَلَبِه للعلم:

لما رأى الشيخ المُرَبّي أبو الفضل بن ناصر من الصبيّ - ابن الجوزي- بوادر النبوغ والإقبال على العِلم، لذلك حرص أشدّ الحِرص على أن يقوم بتعليمه العلم النافع، كما كان نَفس الحرص أيضًا من ابن الجوزي على هذا العلم في صغره، فحفظ القرآن الكريم حِفظًا جيدًا، وبعد الحِفظ بدأ بالعَرض والقراءة

على جماعة من أئمة القراءة المُتْقِنين المجازين، فأتقنَ الحفظ وأجاد القراءة، ولعل السِّر في هذا يكمن في قدرته على الحفظ، وحِرصه الشديد على طلب العِلم، مع قوة البديهة، وحضور الذهن، وهذا ما أبرز كثرة محفوظاته وسعة روايته ودرايته.

وقد حُبّب لابن الجوزي العِلم وطَلَبه والاجتهاد فيه والسَّعي الحثيث في ذلك، واللهُ - سبحانه وتعالى - يُوَزّع الأرزاق على عباده كيف يشاء، فمن الناس مَن حبَّب الله إليه قراءة القرآن، ومن الناس من حُبّب إليه الإنفاق، ومنهم مَن حُبّب إليه الحديث، ومنهم مَن حُبّب إليه العِلم والانقطاع له، وكان من هؤلاء الذين حُبّب إليهم العِلم الإمام ابن الجوزي فقد أحبّ العِلم وانقطع له انقطاعًا تامًّا، وأقبل على الدرس ومجالس العُلماء، وترك ما كان عليه أقرانه ومَن هم في سِنّه من الصبيان الذين عادة في هذه السِّن يلعبون ويلهون ولا يُعطون العِلم أيّ اهتمام، لعدم معرفتهم بما يعود عليهم منه ولا يُقدرون له قدره، فقد كان ابن الجوزي في هذه السّن المُبَكّرة يهتم بالتعليم اهتمامًا بالغًا، ومما أُثِر عنه أنه كان لا يخرج من بيته إلا للصلاة أو دروس العلم، وكان لا يلعب مع الصبيان، فهو إما في المسجد يتعلم، أو في البيت يكتب ويُدوّن ما تعلّمه، وهو الذي توفي أبوه وهو صغير، يقول عن نفسه في كتابه (لفتة الكبد) فيقول: " كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون، وأنا في زمن الصبا آخذ جزء أقعد في حُجرة، وأبتعد عن الناس فأتشاغل بالعلم".

ومما ساعد ابن الجوزي على الاستفادة العِلميّة نشأته في بغداد، حاضرة العِلم والعلماء آنذاك، فقد كانت في ذلك الوقت مُشرقةً زاهرةً بشتّى أنواع العلوم والفنون، زاخرة بالعلماء الأفذاذ في كل العلوم الشرعية والحياتيّة، مما جعل ابن الجوزي - رحمه الله - ينهل من هذا المنهل الصافي، والبحر الزاخر الفياض الذي لا يغيض ولا ينضب، بل يستمر تدفقه إلى ما شاء الله، فهي

عاصمة العلم وقِبلة العلماء وطلاب العلم في ذاك الوقت، (بغداد) أعادها الله إلى سابق عهدها، ومنزلتها التي تليق بها بين الأمم كما كانت.

ومما يدلّ على شِدّة حُبّ الإمام ابن الجوزي للعلم وَوَلَعه به ما حدّث به عن نفسه في أجمل وأهمّ وأروع كتابٍ من كُتُبه -وهو الكتاب المعروف بـ (صيد الخاطر) وقد كان -رحمه الله- إذا جالَت بعقله أيّ خاطرة حتى وإن لم يكن لها علاقة بما يكتبه في كُتبه في وقته هذا فإنه يدوّن هذه الخاطرة في كتابه هذا (صيد الخاطر)، الذي جمعه على مدار سنين عُمره حتى صار كتابًا كاملًا، كان عبارة عن أفكار واستشهادات وأمثال يستفيد منه كلّ قارئ له، لأنه خلاصة تجاربه الحياتية، بقوله عن هذا الكتاب "إن الإنسان تمر به خواطر وأفكار جميلة أحيانا، فإذا ما كتبها ذهبت" لذا أسماه بـ(صيد الخاطر).

نعود لحديث ابن الجوزي عن نفسه في كتابه صيد الخاطر: "أقول عن نفسي وما يلزمني حال غيري، [1] إنني رجل حُبّب إليّ العِلم منذ زمن الطفولة فتشاغلت به، ولم يُحَبّب إليَّ فنٌّ واحد فقط منه، بل حُبّب إليّ كثيرٌ من فنونه، -بفضل الله - حتى أنني لا تقتصر هِمّتِي في فنٍّ على بعضه فقط[2]، بل أروم استقصاءه، والزمان لا يَتّسع، والعمر أضيق، والشوق يَقوَى، والعَجز يُقعِد، وأنا شوقي وحُبّي للعلم كبير، لكنّ جسمي لا يحتمل ولا يلحق، والزمن قصير، فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات[3]، ويكمل كلامه عن نفسه فيقول:

(١) أنا مسؤولٌ عن حالي ولست مسؤولًا عن أحوال غيري من الناس، فالله قد يُعطي غيري مالا يعطيه لي.

(٢) يقول إنني حتى لو تعلمت علم من العلوم أو فن من الفنون لا أكتفي بجزء منه بل أجتهد في تحصيل أكبر قدْرٍ منه.

(٣) يقول ابن الجوزي عن طلبه للعلوم أن هناك بعض العلوم لم أكمل دراستها، كما أنّ بعض المؤلفات لم انتهي إكمالها، وفي النفس حسرة لعدم الانتهاء منها، وأتمنّى أن لا أموت حتى انتهي منها. كانت هذه هي همّته رحمه الله لذا وصل إلى ما وصل إليه من العلم الغزير.

"وقد دَرَسْتُ على يد ستة وثمانين شيخًا من الشيوخ، أخذت من كل واحد ما عنده من علمه، فكلما ملت إلى الانقطاع عن الشواغل إلى الخلوة، صاح بي العلم: أين تمضي؟! أتعرض عني، وأنا سبب معرفتك به؟! فأقول له: إنما كنت دليلًا لي لمعرفة ربي، ثم يقول العِلمُ لي.. أو ما تسمع قول الله يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]"[(١)].

هكذا كان ابن الجوزي - رحمه الله-، رجل حَبّب الله إليه العلم كما حَبّب الله إليه نقل هذا العلم للناس، فقد وَعَظَ الناس في المساجد الكُبرى في بغداد، كما درّس الفقه واللغة وغيرها من العلوم مُدّة طويلة، لكنه كان مُبدِعًا في الجانب الوعظيّ المُؤثر حتى صار الواعظ الأول في بغداد، ووصلت مواعظه إلى الناس، فكان الناس يتأثرون بمواعظه وكلماته جدًا، حتى صار الناس يأتون إليه من كل مكان، حتى قيل عنه أنه واعِظ زمانه لِما كان في وعظه من التأثير، ولما كان فيه كلامه وخُطبه من الحديث عن واقع الناس ومخاطبتهم بما تستطيعه عقولهم وتصل إليه مداركهم، وما كان في كلامه من تحريك للقلوب المؤمنة.

ومن خلال سيرة الإمام العظيم أبي الفرَج ابن الجوزي نجد أنه قد ذاع صيته في الوعظ حتى بَلَغت شُهرته الآفاق، وكما هو الغالب على طبيعة الكثير من الناس أن تتعلق قلوبهم بالوعظ والوعّاظ وخاصة مَن رزقهم الله حُسن التعبير وقوة التأثير كابن الجوزي، فقد وصل عدد مَن كانوا يحضرون خُطبه ودروسه -كما قَدَّرَه بعضهم- إلى مائة ألف شخص يحضرون دروسه ومواعظه[(٢)]، حتى قيل عنه واعظ الأمة فكان وحيد عصره ونابغة قَرنِه كما يقولون، وكان الناس يقصدونه لأجل أن يتوبوا على يديه.

(١) ينظر بتصرّف: صيد الخاطر، ابن الجوزي. (ص٥١).
(٢) قد يكون في هذه الأعداد مبالغة، لكن هذا يدلّ على كثرة الحضور في مجلسه.

قال عنه ابن جبير الرَّحَالَة المشهور لما رأه في إحدى زياراته لبغداد في عام ٥٨٠ هـ وحضر مجلس من مجالس ابن الجوزي: "ما رأيت مثل ابن الجوزي في وعظه ومجالسه، ولقد رأيت عشرات الألوف يتساقطون عليه تساقط الفراش على المصباح". ويقول ابن رجب الحنبليّ عن مواعظ ابن الجوزي: "كان إذا وعظ اختلس القلوب، حتى أن الخليفة كان ممن يحضرون مجالسه وكلماته في المناسبات وغيرها. يروى أنه في يوم من الأيام وكان الخليفة حاضرًا فقال في خطبته موعظة للخليفة - قيلت لهارون الرشيد من قبل-، فكان مما قاله: "يا أمير المؤمنين إن تكلمت خِفتُ منك، وإن سكَتّ خفت عليك، وأنا أقدم خوفي عليك على خوفي منك". ولكن الواقع يُظهِر أنّ أمثال هؤلاء العُلماء الرّبانيّين العُظماء عندما يصبحون بهذا الوزن من العلم يكثر حُسّادهم وكارهيهم كما هو في كلّ زمان ومكان، ولهذا قام بعض الحُسّاد والحاقدين بالوشاية به عند الخليفة الناصر لدين الله العباسي آنذاك، وقالوا عن ابن الجوزي إنه يتكلم ضد الخليفة ويؤلّب الناس عليه ويحرك الناس عليه، وبكل أسىً وأسف صدق الخليفة هذه الكذبة وبدأت المحنة الشديدة التي استمرّت سنوات على ابن الجوزي، فما هي هذه المحنة وكيف كانت ومن الذين شاركوا فيها ضد ابن الجوزي؟؟.

محنة ابن الجوزي:

بداية يجب أن نعرف أن طريق الأنبياء ومَن على طريقهم من العلماء الربانيين أو الدعاة إلى الله دائما ما يكون مليئًا بالمِحَن والابتلاءات، لكنّ بعض هذه المِحَن أحيانًا ما يكون بعضها أشد وقعًا وأثرًا من بعضها الآخر، فتكون المحنة من أقارب الشخص أو طلابه أو مَن يكون للشخص عليه فضل ويد فهذه المِحنة أشد وقعًا من غيرها، كما أن المحنة إذا كانت عند تقدّم السِّنّ

واشتداد احتياج الإنسان لِمَن يعوله ويُساعده ويقوم على شؤونه ففي هذه الحالة أشد وأشَدّ وقعًا من غيرها، أمّا إذا كانت المحنة يجتمع فيها ما سبق ومع هذا يتشرّد صاحبها ويُنفى بعيدًا عن أهله وبلده وحيدًا، ومع ذلك ينتقل صاحب المحنة من المكانة العِلميّة العالية والإمامة إلى الهجر والنسيان والإهانة والسّجن، فالله وحده أعلم بما يكون فيه صاحب هذه المحنة من الشِّدّة والكَرب والغمّ. لكن كلّ هذه الابتلاءات والمِحن مجتَمِعة قد وقعت للشيخ الكبير والإمام العظيم أبي الفرج ابن الجوزي، لكنه بفضل الله رَوَّضها واستفاد منها فيما ينفعه، وحوّلها إلى مِنحَة.

كانت لابن الجوزي - رحمه الله – المكانة العالية والمنزلة الكبيرة عند الخلفاء العبّاسيين وغالب وزرائهم مثل الوزير عون الدين بن هبيرة الذي استوزره الخليفة العباسي المقتفي بالله في سنة ٥٥٠هـ وكان الوزير ابن هبيرة من خيار الوزراء، وأفاضل العلماء، وظل على هذه المكانة الجيّدة حتى تولى الخلافة الناصر لدين الله العباسي سنة ٥٧٥هـ وكان يخالف سيرة أبائه وأجداده، فقد كان الخليفة الناصر شيعيًّا معلنًا تشيّعه مجاهرًا بذلك، حتى أنه قرّب الشيعة منه واستخدمهم في أعماله الخاصة والعامّة وشؤون الدولة، وبدأ بالتنَكُّر والعداوة لأهل السنة وعلمائهم، ومنهم ابن الجوزي؛ ومن ثم استغل خصوم ابن الجوزي هذا الأمر، وخططوا للإيقاع به فقاموا بالوِشَاية به عند الخليفة، وكان مِن ألد أعداء الشيخ ابن الجوزي رجل مُقَرّبًا من الخليفة آنذاك اسمه الركن عبد السلام بن عبد الوهاب، وكان رجلا رديء المعتقد على مذهب الفلاسفة، شروًبا للخمر، وكان ابن الجوزي قد أفتى بحرق كتبه لِمَا فيها من فساد وخلل؛ فأُحرِقت ومُنعت، ومن ثم أخذت منه مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني التي كان قيّمًا عليها، وأعطيت لابن الجوزي، فاغتم الرُّكن لذلك، وقرر الإيقاع بالشيخ ابن الجوزي.

ومن العَجَب العُجَاب أن الذي تآمر مع الرُّكن عبد السلام في مؤامرته ووشاياته ضد ابن الجوزي هو أقرب الناس لابن الجوزي، ألا وهو ولده الأكبر واسمه أبو القاسم عليّ، وكان ماجنًا فاسقًا، وكان نديمًا للرُّكن عبد السلام في مجالس الخمور والفجور، وكان من أشدّ الناس عقوقًا لأبيه، ولما رأى أبوه وإخوته منه الفُجر والمُجون هَجَروه لسوء أفعاله وفساد أخلاقه؛ فاتفق هذا الابن العاقّ أبو القاسم عليّ مع هذا الرجل الفاسد الركن عبد السلام للإيقاع والنَّيل من الشيخ ابن الجوزي، على كُلٍّ فقد تم تفويض أَمْر سَجن ابن الجوزيّ إلى الرُّكْن عبد السلام والتصرف معه من قِبَل أحد وزراء الخليفة يُسمّى ابن القصّاب، وذلك سنة ٥٩٠هـ وكان ابن الجوزي وقتها في الثمانين من العمر؛ وجاءت الفُرصة السَّانحة للرُّكْن عبد السلام حتى ينتقم من ابن الجوزي، فذهب بنفسه إلى دار ابن الجوزي، وأخذ معه العسكر فدخلوا على الشيخ وأهانوه، وجذبوه بشدة من بيته بلا ملابس تقيه حرّ الصيف أو برد الشتاء، ولم يكتفوا بهذا بل ختموا على داره[1]، ثم قاموا بِنَفيهِ إلى مدينة واسِط، وفيها حبسوه في بيت ضيق بلا أحد يخدمه أو يعولُه في الطبخ أو الغَسل لملابسه، فهو كان مُسِنًّا قد جاوز الثمانين من عُمره، وبقي وحده ومنعوا اجتماع الناس له أو زيارته من أولاده وأقاربه، وقد لاقى صُنُوفًا وألوانًا من العذاب والمِحَن طوال خمس سنوات في سجنه في واسط، ولم يكتف هذا الشّقيّ بما فعله مع الإمام ابن الجوزي من إهانةٍ ونفيٍ وسَجنٍ وتعذيب، بل حاول التواصل مع والي مدينة واسط كَي يقتُل ابن الجوزي، لكن خيَّب الله سعيه وفشلت خطته.

ومما زاد المِحنَة والكَرب على الإمام ابن الجوزي وهو في سجنه وهو الرجل الذي قد جاوز عُمره الثمانين، ما فَعَلَهُ ابنُه العَاقّ الفاسق أبي القاسم

(١) ما يُسمّى الآن بالإقامة الجبريّة.

عَلِيٌّ الذي تَسَلَّط على تُرَاث أبيه العِلمِيّ وكُتُبه التي كانت مئات المجلدات وفي شتي الفنون، فمن حُمقه وسفاهته قام ببيعها بالأحمال، والأَدْهَى والأَمَرّ أنه شَرِبَ بثمنها الخَمر، وجَاهَرَ بفُحشِه وسفاهته، كلّ هذا وأبوه يعاني من السجن والغُربة والوحدة، ومعها ما يراه من مرارة الجحود والنكران.

ظل الإمام ابن الجوزي في محنته هذه وهو في سجنه يعاني الإهانة والإهمال حوالي خمس سنوات، هذه المحنة كانت كفيلة بتحطيم عزيمة أي رجل شابٍّ قويٍ، فضلًا عن أن يكون شيخًا طاعنًا في السِّنّ، ولكن الشيخ ابن الجوزي رَوَّضَ هذه المحنة الشديدة، واستفاد منها في قراءة الكتب والتأليف، كما كان أهَمّ ما استفاده من هذه المحنة هو حفظه للقرآن الكريم بالقراءات العشر، وعُمرُه حينها فوق الرابعة والثمانين.

ثم دخلت سنة ٥٩٥هـ وقد أَذِنَ الله بالفَرَج فَرُفعت المحنة، وذلك بعد أن استطاع ابنه البَارّ به يوسف أن يَصِل إلى أم الخليفة الناصر العباسيّ لتشفع لأبيه عند الخليفة حتى يخرج من سجنه، وبالفعل استطاعت أن تؤثر على الخليفة فأُطلق سراحه بشفاعتها لابن الجوزي، وبفضل الله ثم شفاعة أُمّ الخليفة خرَجَ ابن الجوزي من سجنه إلى بيته ببغداد، وأُذِنَ له بالخطبة والوعظ وعاد إلى مكانته التي كان عليها من قبل حتى أن الخليفة العباسيّ حَضَرَ بنفسه مجالسه وخُطبه التي كان يسمع فيها كلمات ابن الجوزي المؤثرة، ثم بعد خروجه من سجنه بقليل مَرِضَ ابن الجوزي مَرَضَه الذي مات فيه، وذلك في منتصف شهر رمضان سنة ٥٩٧هـ رحمه الله [1].

من أقوال العلماء فيه:

قال الإمام الذهبيّ: كان ابن الجوزي رأسًا في التذكير بلا مدافعة، فكان

(١) وفيات الأعيان، ابن خلكان. (3/140)، الكامل في التاريخ، ابن الأثير (10/276).

يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهيًا، ويسهب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله؛ فهو حامل لواء الوعظ، والقيِّم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحرًا في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفًا بحسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيهًا، عليمًا بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنن وفهم وذكاء، وحفظ واستحضار.

قال أبو عبد الله الدبيثي في تاريخه: شيخنا جمال الدين صاحب التصانيف في فنون العلوم: من التفسير والفقه والحديث والتواريخ وغير ذلك، وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه من سقيمه، وكان من أحسن الناس كلامًا، وأتمهم نظامًا، وأعذبهم لسانًا، وأجودهم بيانًا، وبورك له في عمره وعمله[1].

وقال الموفق عبد اللطيف المقدسي: كان ابن الجوزي لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، لذيذ المفاكهة، يحضر مجلسه مائة ألف أو يزيدون، لا يضيع من زمانه شيئًا، يكتب في اليوم أربع كراريس، وله في كل علم مشاركة، لكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كاف، وأما السجع الوعظيّ فله فيه ملكة قوية.

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي: كان ابن الجوزي إمام أهل عصره في الوعظ، صنف في فنون العلم تصانيف حسنة، وكان صاحب فنون، صنّف في الفقه وغيره، وكان حافظًا للحديث، إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنة، وذلك لأنه قد خالف الحنابلة في الكثير من مسائل الاعتقاد، حتى جلب على نفسه كثيرًا من المشاكل[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (21/365).

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير (13/35). الكامل في التاريخ، ابن الأثير، (10/276)

من أهمّ مصنفاته:

يقول ابن الجوزيّ أنه كتب الحديث وعُمره إحدى عشرة سنة، فانظر إليه كيف تكون مصنفاته عندما يكبر، فهو في هذه السّنّ المبكرة تعلّم الحديث وكتبه، وأخذ عن كبار أهل العلم، فبرَعَ وبذغ نجمه وفاق أقرانه، وتَفَوَّق في كثير من العلوم، حتى قيل عنه أنه كان إمامًا في الفقه، حتى حضر مجالسه جماعة من الفقهاء الحنابلة، وكان إمامًا في التفسير، وفي اللغة والتاريخ، وعلم أسباب النزول، فجمعها كلها ولهذا استطاع أن يفسر القرآن الكريم تفسيرًا على طريقة الوعّاظ والخطباء، وبلغت مؤلفاته وتصانيفه في القرآن وعلومه فقط أكثر من سبعة وعشرين كتابًا، أبرزها كتابه الشهير "المغني" في التفسير، ثم اختصره في أربع مجلدات، وسماه: "زاد المسير في علم التفسير".

هذا وقد اختلف المؤرخون في عدد مؤلفات ابن الجوزي، حيث أَوْصَلَها بعضهم إلى ثلاثمائة وبعضهم أَوْصَلَها إلى أربعمائة مصنف، وبعضهم أوصلها لأكثر من أَلْفِ كتاب، منها ما هو صغير الحجم، ومنها ما هو كبير الحجم يصل إلى عدد من المجلدات. منها "تذكرة الأريب" في اللغة، "فنون الأفنان"، و"جامع المسانيد" و"التحقيق في مسائل الخلاف" و"مشكل الصحاح" أربع مجلدات، و"المنتظم في التاريخ" عشرة مجلدات، و"صفوة الصفوة " أربع مجلدات، "صيد الخاطر" ثلاث مجلدات، و"منهاج القاصدين" مجلدان، "الوفا بفضائل المصطفى" مجلدان، و"مناقب أبي بكر، ومناقب عمر، ومناقب علي، ومناقب إبراهيم بن أدهم وغيرها الكثير [١].

بعد عُمرٍ طويل في خدمة الإسلام والعِلم والدعوة إلى الله جاءت اللحظة التي لابد منها لكل حيٍّ، ودخلت ليلة الجمعة، الثاني عشر من شهر رمضان،

(١) سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (369/21).

سنة سبعة وتسعين وخمسمائة من الهجرة، وفيها تُوفي الإمام الفذّ أبو الفرج ابن الجوزيّ- رحمه الله - ودفن في اليوم التالي، اليوم المشهود في جنازته فقد ذكَر مَن أَرَّخ لسيرته أن يوم وفاته كان يومًا مشهودًا في بغداد، حيث ازدحم الناس الذين حضروا جنازته وتشييعه، حتى أن الأسواق أُغلقت وأفطر بعض الناس لشدة الزحام والحرّ، ودُفِن قُرب قبر الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات، بالشمع والقناديل، ورآه في تلك الليلة المحدث أحمد بن سلمان السكر في النوم وهو على منبر من ياقوت، وهو جالس في مقعد صدق والملائكة بين يديه[1].

من وصايا ابن الجوزي وأقواله:

من أهمّ وأروع ما تركه ابن الجوزي من وصايا وأقوال، هي ما جمعها في كتابه الرائع (صيد الخاطر)، وهو كتاب كتبه من خلال تأملاته وتجاربه الطويلة في الحياة والعلم، منها:

١. "احذر أن تسكن إلى ظاهر حالك من سلامة بدنٍ أو مالٍ أو جاهٍ، فإنها من علامات الاستدراج." فهنا يذكّر بأن الرخاء وحُسن الحال لا يعني دائمًا أنه من رضا الله للعبد، فربما يكون استدراج أو اختبار من الله له.

٢. "رأيت الاشتغال بالعلم هو أنفع شيء، لأن صاحبه يزداد معرفة بربه كلما ازداد طلبًا" وهنا جعل ابن الجوزي العلم وسيلة لتزكية النفس، وكثرة العمل والتقرب إلى الله، لا مجرد الجدل أو الشهرة.

٣. ومن أقواله: "لو أن الإنسان تفكر في انتقام الله من الظالم، لرضي بظلم الناس له".

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي (380/21).

وهذه دعوة منه لأن يُسَلم المظلوم أمره الله، ويثق بأن الله لا يضيع عنده الحقوق.

٤.ومن دُرر أقواله: "عليك بالعلم، فإنه حياة القلوب، ونور البصائر، ودواء الصدور".

وصيته لمن أراد النجاة: عليه بالعلم الذي يُقربه من الله، فلا يُقصد به الجدل، بل يقصد إحياء قلبه وتطهير نفسه.

ما يستفاد من سيرة الإمام ابن الجوزي:

سيرة الإمام ابن الجوزي تحمل العديد من العِظات والعبر والدروس المهمة، ومن أبرز ما يستفاد منها:

١. أن اليُتم ليس عيبًا ولا شيئاً سيئًا أحيانًا، بل كثيرًا ما يكون سببًا في جعل الإنسان يتحمل المسؤولية، ويعتمد على نفسه في أكثر أموره، وتظهر عليه الرجولة منذ الصّغر.

٢. الرعاية المبكرة التي حصل عليها من والدته ومن عمته ثم من الشيخ الذي تكفّل به، مما يدعونا كآباء وأمهات وأوصياء أن نهتمّ بالأبناء منذ الصّغر ولا نتركهم للمجتمع أو أصحاب السوء أو وسائل التواصل الاجتماعي، بل نراقبهم عن كثب فهم أغلى وأهمّ ما نملك من ثروة.

٣. الجد والاجتهاد في التعلّم والتعليم: فها هو ابن الجوزي - رحمه الله - بلغ من اجتهاده أن له أكثر من ألف مؤلف في مختلف العلوم، من التفسير والحديث والتاريخ وغيرها، مما يدل على شدة حرصه على نشر العلم، كما كان حريصًا جدًا على تبسيط العلوم لعامة الناس.

٤. الصدق في إيصال رسالته للناس: حيث تميز الإمام ابن الجوزي بأسلوبه الوعظي المؤثر، حتى كان يَبكي ويُبكي الناس من حوله، مما يدل على صدق لهجته وقوة تأثيره، وحرصه على تزكية النفوس.

٥. ثباته وصدقه في وجه الابتلاءات: فرغم السجن والعزل، لم يتوقف ابن الجوزي عن التأمل والكتابة، بل ألّف هناك كتبًا مثل المنتظم وصيد الخاطر وغيرها، ورغم كل ما تعرض له من المحن إلا أنه ثبت على طريق العلم والوعظ والإصلاح ولم يتراجع، ما يدلّ على صدقه في دعوته.

٦. المِحَن سنة في طريق الأنبياء والمصلحين: فقد نجد أكثر العلماء والدعاة قبولًا بين الناس لا يسلمون من الحسد أو ظلم السُلطات، والعبرة إنما تكون في الصبر والثبات وعدم اليأس.

٧. نهاية عظيمة وخاتمة حسنة: فبعد خروجه من السجن عاد إلى الوعظ، وأقبل عليه الناس أكثر من ذي قبل، حتى تُوفي سنة ٥٩٧ هـ وشيّعه خلق عظيم في بغداد.

الأسئلة:

١. من هو الإمام ابن الجوزي؟ وإلى أيّ من الصحابة ينتهي نَسَبه؟

٢. في أي سنة وُلد ابن الجوزي؟ وفي أي مدينة؟

٣. إلى أي مذهب فقهي كان ينتمي ابن الجوزي؟

٤. من هو الشيخ الذي رعاه واعتنى به بعد وفاة والده؟

٥. ما أبرز صفة اشتهر بها ابن الجوزي في وعظه؟

٦. كم كتابًا تقريبًا ألّف ابن الجوزي خلال حياته؟

٧. ما اسم أشهر كتبه في الوعظ والتجربة الشخصية؟

٨. ما اسم أهم كتاب له ألّفه في التفسير؟ ومن أيّ كتاب اختصره؟

٩. ما السبب الذي أدى إلى سجنه في أواخر حياته؟

١٠. متى تُوفي ابن الجوزي؟ وكم كان عمره تقريبًا؟

***

٥- الإمام الكبير جلال الدين السيوطي

نعيش معاً في هذه الصفحات عن شخصية فذّة وعبقرية مصرية، كانت هذه الشخصية العظيمة حقيقة بمثابة الشمس الساطعة التي سطعت في العاصمة المصرية القاهرة وامتدت آثار هذه الشخصية في كثير من بلاد المشرق والمغرب، وكانت هذه الشخصية حديث العلماء وطلاب العلم وشغلهم الشاغل على مدى خمس قرون من الزمان منذ وفاة هذا الإمام الكبير وحتى يومنا هذا.

هذه الشخصية هي الإمام العَلَم: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن بكر ابن الشيخ همام الدين الخضيري السُّيُوطي، العالِم الفذّ صاحب المؤلفات الكثيرة في مختلف العلوم. عُرف السيوطيّ بعلمه الغزير وسِعة اطلاعه، وكثرة تصانيفه في مختلف فروع العم، مثل التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، والتاريخ، والتصوف وغيرها، قال عن نفسه: "رُزقتُ -ولله الحمد- التَّبَحُّر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع"، وليس هذه العلوم فحسب بل غيرها كأصول الفقه والتصريف، والإنشاء والقراءات والطب.

وُلد الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي، في القاهرة سنة ٨٤٩ هـ

ولقبه الذي اشتهر به: جلال الدين. **وكنيته**: أبو الفضل. ونسبته السُّيُوطي، نِسبةً إلى أسيوط -مدينة بصعيد مصر- وهي بلدة أبيه التي رحل منها إلى القاهرة لدراسة العلم بها، كما لُقّب بأنه ابن الكُتُب، وذلك لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب، ففاجأها المخاض، فولدته وهي بين الكتب![1].

(١) ينظر: الأعلام، للزركلي، (٣٠١/٣).

نشأته وتعليمه:

نشأ الإمام جلال الدين السيوطيّ يتيماً كما كثيرٍ من العلماء الذين لم يتربَّوا في أكناف آبائهم، حيث تُوفي أبوه وهو دون سِنّ السادسة من عمره. وبدأ حفظ القرآن الكريم وهو صغير وأتمّ حفظه وهو دون العاشرة من عمره.

وتلقى العلم على يد عدد كبير من علماء وشيوخ عصره، والذين بلغ عددهم كما قال هو أنهم أكثر من ١٥٠ شيخاً. كما درس في الأزهر وغيره من مساجد القاهرة الكبرى.

وكان السيوطيّ - رحمه الله - سليل أسرة ذات عِلمٍ ودين واشتهرت بين الناس بالعلم والتدين، فأبوه أبو بكر بن محمد الخضيري كان من العلماء الصالحين، ومن ذوي المكانة العلمية العالية، ولهذا وجَّه ابنه الإمام الجلال الدين السيوطي إلى حفظ القرآن الكريم من صِغره، فأتمه بعد وفاة أبيه، فاتسعت مداركه، وزادت معارفه.

ونظرًا لأن الأصدقاء الصالحين لهم مكانة في الخير عند أصحابهم، فيدلونهم على الخير ويحفظون أمانة أصحابهم وفي أنفسهم وأبنائهم وذويهم، كان الإمام جلال الدين السيوطي محل العناية والرعاية من عدد من العلماء الرّبّانيين من أصدقاء أبيه الذين حفظوا أمانة صديقهم، فتولَّى بعضهم أمر الوصاية عليه، ومن هؤلاء العظماء العالِم الكبير الكمال ابن الهمام الحنفي[1]، (ت:٨٦١هـ)

(١) محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد، كمال الدين، المعروف بابن الهمام، من علماء الحنفية. عالمًا بالتفسير والفرائض والفقه وغيرها. ولد بالإسكندرية، ونبغ في القاهرة. وأقام بحلب مدة. من كتبه: (فتح القدير في شرح الهداية، في الفقه الحنفي، والتحرير في أصول الفقه. ينظر: الضوء اللامع، لأهل القرن التاسع، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) (٨: ١٢٧)، وشذرات الذهب، (٧ :٢٨٩).

أحد كبار فقهاء عصره، فتأثر به السيوطيّ تأثرًا كبيرًا، خاصةً في ابتعاده عن السلاطين وأرباب الدولة. وبسبب حفظ الأوصياء -الذين ائتمنهم الشيخ أبو بكر على ولده- جلال الدين، فقاموا بتوجيه الطفل الصغير بعد إتمام حفظ القرآن إلى حفظ المتون والكتب المفتاحية، فحفظ جلال الدين بعض الكتب ككتاب العمدة للإمام عبد الغني النابلسي المقدسي (ت: ٦٠٠هـ)، وألفية ابن مالك (ت: ٦٧٢هـ)، وكتاب منهاج الوصول للبيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) وغيرها من الكتب.

وكان لمعايشة السيوطي علماء عصره الذين كانوا رفاقا لوالده، فتأثر بهذا الجو العلمي الخالص حتى نبغ مبكرا، فألف في سنة ٨٦٦هـ -وكان عمره ١٧ عاما- رسالة علمية شرح فيها الاستعاذة والبسملة، ولقيت حفاوة كبيرة من علماء عصره خاصة شيخه علم الدين البلقيني[١].

ولما كانت الرحلات العلمية طريقا لازمًا للتّعَلُّم، فقد بدأ السيوطي هذا الطريق في أوائل الطلب، فسافر مشرقًا ومغربًا، وتنقل في عدد من مدن مصر يتتبع علماءها لينهل من علمهم، كما ارتحل في طلب العلم إلى بلاد الحجاز والشام واليمن والهند والمغرب الإسلامي، وتأثر السيوطي بنخبة من كبار العلماء الذين عايشهم أو ارتحل إليهم، ثم تفَرَّغ للعبادة والتأليف عند بلوغه سن الأربعين.

وكان للسيوطيّ منهجًا في الجلوس إلى المشايخ والأخذ عنهم، وهو أن يختار شيخًا واحدًا يجلس إليه، فإذا ما توفِّي انتقل إلى غيره، وكان من أبرز

(١) صالح بن عمر بن رسلان البُلْقيني الشافعيّ شيخ الإسلام: من علماء الحديث والفقه، ولد ببلدة بُلقين بمصر، ولد ٧٩١هـ. تصدر للإفتاء والتدريس بعد موت أخيه عبد الرحمن (سنة ٨٢٤ هـ وولي قضاء الديار المصرية. من كتبه (ديوان خطب)، ترجمة والده وأخيه في مجلدين، و (التجرد والاهتمام بجمع فتاوي الوالد شيخ الإسلام) توفي سنة ٨٦٨هـ ينظر: الأعلام للزركلي، (٣/ ١٩٤).

شيوخه: محيي الدين الكافيجي[١]. وشرف الدين المُناويّ[٢]. وجلال الدين المحلي[٣]. وعلم الدين البُلْقِينيّ[٤].

وقفات مع الإمام السيوطيّ:

- كان العلّامة السيوطيّ إمامًا عظيمًا من أئمة التجديد في عصره وبعده، وعلمًا كبيرًا من كبار أعلام الإسلام، بل وكان عبارة عن دائرة معارف كبرى في كثير من العلوم، وموسوعةً كُبرَى من الموسوعات العلمية النادرة، كما كانت له مشاركات عظيمة في العدد من المجالات العِلمية والمعرفية المختلفة، وهذا ما يتبيّن للقاصي والدّاني وكل مَن يقرأ ولو بعضًا من كُتبه يرى مدى عِلم وموسوعية السيوطيّ هذا العَلَم الفذّ المجتهد، بل إن كل مَن يُديم النظر والمطالعة، وكل مَن يغوص داخل شخصيته أو اقترب من عقله وروحه، في أيّ مجالٍ من مجالات العلوم التي كتب فيها، أو سِجالاته العِلمِية مع علماء عصره، يجد مدى تَبَنّي الإمام السيوطي الموسوعي الكبير لقضية الاجتهاد والتجديد وهي القضية التي تشغل الكثير من علماء الإسلام المعاصرين.

---

(١) محيي الدين: محمد بن سليمان بن سعد، الحنفي المعروف بالكافيجي؛ ولقب بذلك لاشتغاله بالكافية في النحو لابن الحاجب، ولد سنة ٧٨٨هـ واشتغل بالعلم، والتقى بالعلماء. من شيوخه: "شمس الدين الفنري"، و"حافظ الدين البزازي"، من تلاميذه: الصيرفي، والسيوطيّ الذي قال عنه: (لزمته أربع عشرة سنة، فما جئت من مرة إلا وسمعت منه من التحقيقات والعجائب ما لم أسمعه قبل ذلك) وتوفي ٨٧٩. الأعلام للزركلي (١٥٠/٦).

(٢) شرف الدين أبو زكريا يحيى بن محمد بن محمد المناوي المصري. ولد بالقاهرة سنة 798هـ فقيه شافعيّ، أصله من منية بني خصيب، ولي قضاء الديار المصرية، وحمدت سيرته. وصنف كتبا، منها: شرح مختصر المزني. وهو جد المُحَقِّق (محمد عبد الرؤوف المُنَاوي) الأعلام للزركلي، (١٦٧/٨).

(٣) جَلَال الدِّين محمد بن أحمد بن محمد المحلي: أصولي، مفسر. ولد ٧٩١هـ بالقاهرة. وكان مهيبا صدّاعا بالحق، كان الحكام يأتونه فلا يأذن لهم. وكتابه في التفسير أتمه السيوطي. فسمي بتفسير الجلالين، والبدر الطالع في الفقه، وتوفي بالقاهرة ٨٦٤ هـ ينظر: الأعلام للزركلي، (٣٣٣/٥).

(٤) سبقت ترجمته.

- الناظر في حياة الإمام الكبير جلال الدين السيوطي نجد أنه بحقّ كان وما زال ظاهرة علمية نادرة التكرار، حتى أنه يتفرد بعدد كبير من المميزات والخصائص العلمية وكثرة التآليف في كثير من الفنون والتي لم تتحقق إلا في القليل من العلماء السابقين أو اللاحقين، ولعلّ هذا كان من أسبابه أنه تتلمذ وحضر منذ الصغر لكثير من علماء عصره كالحافظ ابن حجر العسقلاني - الذي كان يفتخر بحضوره مجالسه وهو في الثالثة من عُمره - وغيره من كبار علماء عصره الذين زادوا على المائة والعشرين ممن لازمهم من العلماء وأخذ عنهم مباشرة، وأكثر من ستمائة من العلماء الذين كاتبهم أو راسَلَهم واستجازهم واستفاد منهم ولو بوجه من وجوه الاستفادة، حتى تأهل وتصَدّر وبَرَع، وكان من ضمن شيوخه عدد من النساء الذين تتلمذ أو قرأ عليهن واستفاد منهن في حياته العلمية والمعرفية، واللاتي زدن على الأربعين امرأة، وكذلك لا يُنسى فضل والِده العالِم الكبير الذي كان يأخذه لحضور مجالس العلم والعلماء وتربيته على ذلك حتى أنه أوصى به رُفقاء دربه من علماء عصره.

- لم يتصدَّر الإمام السيوطي ويتم تأهيله والسماح له بالتدريس[1] إلا بعد أن شهد له كثير من علماء عصره ومجلس التصدير كان معناه في ذلك الوقت المجلس الذي يشهد فيه العلماء للطالب بأنه تمكن من العلوم وصار أهلا للتدريس، وقد انعقد مجلس التأهيل للتدريس للإمام جلال الدين السيوطي، من هذه اللجنة المكونة من كبار العلماء في عصره، وهو في السادسة عشرة من عُمره، بما مسمّاه الآن في عصرنا في الصف الأول الثانوي، أو إن شئت فقُل في سِنّ الطفولة حسَب مصطلح الأمم المتحدة المعاصر، لذا لا يُستغرب أن يكون

(١) مجلس التصدير الذي كان آنذاك هو مجلسٌ يشهد فيه علماء كبار مشهود لهم بالعلم لهذا الطالب بأنه قد تمكن من العلوم وصار أهلا للتدريس، بمصطلحنا المعاصر الآن مثل مجالس مناقشة الرسائل العلميّة الأكاديمية كالماجستير أو الدكتوراه.

السيوطي نابغة عصره وشخصية علمية نادرة التكرار سابقًا ولاحقًا. ونظرًا لقوة عقله وسِعة مداركه العلمية، وعبقريته الفذّة وهِمّته العالية التي وهبه الله إياها، فقد اشتغل في وقت مبكر بالتأليف والتدريس والمباحثة حتى سطعت شمسه في الكثير من بلاد العالم الإسلاميّ وحفظ العلماء اسمه وخرجت مؤلفاته إلى النور في حياته وبعد مماته، وشهد له العلماء بالبراعة والإمامة والتَّمَكُّن والإتقان وهو في هذه السِّنّ المبكرة.

- لماذا كثُرت مؤلفات وتصنيفات الإمام الكبير جلال الدين السيوطيّ؟

المتأمل في سيرة السيوطي يجد أنه بعد أن أُجيز وتأهّل - رحمه الله - للتدريس والتعليم، وكاتَب علماء الآفاق وبزغ نجمه وسطعت شمسه في مصر وغيرها من بلاد الإسلام، وبعد أن وصل سِنّ الأربعين من عُمره أتخذ القرار العجيب الغريب، ألا وهو ترك واعتزال الناس جميعًا من العوامّ والسلاطين وأصحاب الجاه، وقرّر أن يعتكف في بيته في روضة المقياس - المنيل الآن بمحافظة القاهرة الآن - فأغلق عليه بابه عن الجميع إلا قلائل من طلاب العلم الذين سمح لهم بالقراءة عليه وظلّ على هذا مدة عشرين سنة، حتى وافته المَنِيّة سنة ٩١١هـ وهو في السّتّين من عمره، فاستغلّ هذه الفترة أفضل استغلال، واستفاد منها أعظم استفادة، حيث عَكَف على المطالعة والتأليف حتى ترك لنا هذا الكَمّ الكبير من المؤلفات والكُتب الموسوعية، مما جعله أحد أفراد الدنيا في كثرة التأليف والتصنيف، وفي مختلف أنواع العلوم والمعارف والتي زاد على ١٠٠٠ كتاب كما ذكر بعض من المؤرخين، أو أكثر من ٦٠٠ مصنف كما ذكر الزِّركليّ[1]. وهذا الكَمّ الكبير من الكتب والمؤلفات لهذا العَلَم الكبير ليست من الوزن الخفيف، أو الكتب التي ليست لها قيمة علميّة، أو أنها قليلة الفائدة،

(١) الأعلام للزركلي، (٣٠١/٣).

بل كانت من المراجع والمصادر الأساسيّة للعلماء الكبار من بعده، كما أنها لضخامتها وقيمتها العلمية الكبيرة، فقد تم اعتمادها للتدريس في الجامعات والمدارس العلمية الكبرى في الشرق والغرب، حتى أنها تم تدريسها في الأزهر الشريف على مدى قرون من الزمان، وكذلك دُرّست في الجامع الأموي الكبير في دمشق، وكذلك في جامع الفاتح في اسطنبول، وفي جامع الزيتونة بتونس، والقرويين في المغرب، وفي بلاد اليمن والحجاز والعراق وغيرها من بلاد الإسلام.

من مزاياه وخصوصياته:

- مما تميّز به السيوطي همّته العالية، وطموحه البعيد، حتى أنه ما سمع بأحد من العلماء تفرد بمزية من مزايا العلم إلا وأراد أن ينافسه فيها، وما سمع بأحد أَلّف كتابًا في فنٍّ من الفنون إلا وأَلّفَ على غراره. ومن أمثلة ذلك:

١- إمام النحاة وعلّامة العربية في زمانه الإمام ابن مالك[1]، أشهر شيء ألّفه وخلد ذكره على مدى قرون من الزمان هو ألفيّته في النحو الصرف المعروفة بـ "ألفية ابن مالك" والتي حفظها الكثير من طلاب العلم حتى عصرنا الحاضر، قام الإمام السيوطي بمعارضته ونافسه فيها فألَّف على غرارها أَلفيّةً في النحو كألفية الإمام ابن مالك.

٢- الإمام المحَدّث الحافظ العَلَم الكبير زين الدين العراقي، من أشهر ما ألّفه واشتُهر به بين العلماء هو: ألفيته التي نظمها في علوم الحديث، عارضها الإمام السيوطي ونافسه فيها وألّف على غرارها ألفية في الحديث المعروفة بـ "ألفية السيوطي في الحديث" والتي قال في مطلعها:

---

(١) أبو عبد الله: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجيّاني، أحد أئمة العربية. ولد في جيان (بالأندلس) سنة ٦٠٠هـ. انتقل إلى دمشق فتوفي فيها ٦٧٢. أشهر كتبه (الألفية) في النحو، و(الضرب في معرفة لسان العرب) و (الكافية الشافية). الأعلام للزركلي، (٢٣٣/٦).

وهـــذهِ أَلْفيَّـــةٌ تَحـــكِي الـــدُّرَرْ ...
منظومـــةٌ ضَـــمَّنْتُها عِلْـــمَ الأَثَـــرْ
فائِقـــةٌ أَلْفيَّـــةَ العِرَاقِـــي ...
فِي الجَمْـــعِ والإِيجـــازِ وَاْتِّسَـــاقِ
واللـــهُ يُجْـــرِيْ ســـابِغَ الإِحْســـانِ ...
لِيْ وَلَـــهُ ولِـــذَوِيْ الإِيْمَـــانِ

ومن عبقريته الفذّة أنه ألّفها في خمسة أيام فقط وهو في الثلاثين من عمره، أيّ عقلية هذه؟ وأيّ عقليّة هذه التي نتحدث عنها؟ وهو يقول في نهايتها:

يـــوسُفُ وَالْخَطِيـــبُ ذُو الْمَزِيَّـــهْ
هَـــذَا تَمَـــامُ نَظْمِـــيَ الأَلْفِيَّـــهْ
نظـــمتُها في خمســـة الأيـــام
بقـــدرة المهـــيمن العَـــلام
خَتَمْتُهَـــا يَـــوْمَ الْخَمِـــيسِ الْعَـــاشِرِ
يَـــا صَـــاحِ مِـــنْ شَـــهْرِ رَبِيـــعِ الآخِـــرِ
مِـــنْ عَـــامِ إِحْـــدَى وَثَمَـــانِينَ الَّتِـــي
بَعْـــدَ ثَمَانِمِائَـــةٍ لِلْهِجْـــرَةِ

٣- من العلماء الكبار في فنّ المقامات الإمام العَلَم العظيم القاسم بن علي الحريري[١] صاحب المقامات المشهورة بين الناس بـ (مقامات الحريري)، فما

(١) القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، الحريري البصري: الأديب الكبير، صاحب "المقامات الحريرية" و"ملحة الإعراب" ولد بالبصرة 446هـ أديب شاعر فصيح كان حادّ الذكاء. من شيوخه الفضل بن=

كان من العلّامة الفذّ جلال الدين السيوطيّ إلّا أن نافسه فيها، وألّف مقامات على غِرار مقامات الحريري وسَمّاها "مقامات السيوطي" وهي نحو خمسين مقامة رائعة ومتميزة في بابها، وقد نُشرت في عدد من المؤسسات الثقافية المصرية وغير المصرية تحت اسم (مقامات السيوطي)، وإن دلّ هذا فإنما يدلّ على مدى عبقريّة هذا الرجل صاحب العقليّة الفذّة النادرة الوجود.

٤- بلَغَه أنّ عالِمًا من العلماء الكبار كتب كتابًا في يوم واحد فقام بعقليّته الكبيرة بالتحدّي والمنافسة الشريفة لهذا العالِم، فألّفَ السيوطيّ - رحمه الله - كتابًا في يوم واحد وذلك أثناء رحلته للحج في الطريق إلى مكة، وأسماه (النَّفحة المِسكيّة والتُّحفة المَكّيّة) وهو كتاب يحتوي على فصول في النحو والبيان والبديع والعروض والتاريخ، كما ذكر هو ذلك في كتابه (التّحَدُّث بنعمة الله)، وذلك لغزارة علمه، وقوة قريحته وجودتها، وشِدة حفظه، ولحضور المادة العِلميّة في ذهنه، مما جعله لا يحتاج إلى كُتب أو مراجع علمية لمراجعة ما يكتبه، أو مراجعة نُقُول العلماء أو اتفاقهم واختلافاتهم. لذا نجد أنّ الإمام السيوطي كان الصورة الحقيقية الملهمة للهِمّة والطُّموح والتحدي والمنافسة الشريفة، ومثالاً حيًا للعالِم الموسوعي الكبير.

٥- مما تميّز به العلّامة السيوطي - رحمه الله - قبوله للتحدي والمناظرة لكل مَن خالفه أو عاداه أو حسده على ما آتاه الله من العلم الغزير، لذا نرى لما برز نجمه وسطعت شمسه بين العلماء الكبار المتقنين المتمكنين سواء في مصر أو الوافدين اليها وجادله بعضهم في اختياراته العلمية، فما كان منه إلا أن دعا كل من خالفه أو أخذ عليه مأخذ، دعاهم جميعًا للمناظرة، وتحداهم

=محمد القصباني، ومن طلابه: عبد الله بن أحمد الطوسي البغدادي. وأبو المحاسن المهدي الخليلي. وتوفي ٥١٦ هـ ينظر: طبقات الشافعية، السبكي، (٢٩٥/٤). الأعلام للزركلي، (١٧٧/٥).

جميعًا في بيان مآخذهم عليه، أو تصويب وإظهار أخطائه التي رصدوها له في اختياراته العلميّة، بل الأعجب من هذا أنه ألّف في كل مسألة من المسائل التي خالفوه فيها كتابًا مستقلًا بيّن فيه صواب رأيه الذي ذهب إليه وأن مخالفيه هم المخطئون، وكان يقول في بيان مدى سِعة عِلمه وقوّة حُجَّته، يقول: "لو أردت أن أكتب في كل مسألة من مسائل العلم كتابًا مستقلًا بأدلتها ونُقُولها ونُقُوضها وأقيستها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدرت على ذلك بفضل الله لا بفضلي ولا بحولي ولا بقوتي"[1]. لذا لا غرابة أن يُلَقِّبه بعض العلماء بألقاب كبيرة وكثيرة منها (إمام الدنيا) و(الإمام الكبير)، و(الحافظ)، و(المجتهد)، وغير ذلك من الألقاب التي هو جديرٌ بها هذا الإمام الكبير جلال الدين السيوطي الذي ما ترك مسألة خالفه فيها علماء زمانه إلا أبرز فيها كتابًا كاملًا ودعاهم إلى مجالس المناظرة، حتى أن مجموع مؤلفاته في المسائل النقدية والخلافية تقارب الثمانين كتابًا.

٦- مما تميّز به الإمام السيوطي عن غيره من علماء عصره: التّبَحُّر والموسوعية في العلوم مع الشّهادة على ذلك من علماء عصره وحتى مَن جاء بعده، فقد ألّف مثلًا في علوم الحديث كتاب "تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي" الذي ظل يدرس في المدارس على مدى قرون. كما ألّف في علوم القرآن كتابه الشهير والذي صار قِبلة كل مَن جاء بعده، كتاب "الإتقان في علوم القرآن" والذي يُعَدّ بحقّ باكورة ورأس هذا الفن، وكل من جاء بعده قلده أو حاكاه أو اشتبك مع كتابه نقدًا أو تكميلًا أو تتميمًا أو محاورة، فصار كتاب "الإتقان في علوم القرآن" بذرة شجرة من الكتابات في هذا الفن العظيم والجليل. كما ألّف - رحمه الله - في علوم اللغة، وعلوم العربية، وعلوم النحو،

(١) ينظر: حسن المحاضرة، والتحدث بنعمة الله كلاهما للسيوطيّ.

والمعاجم، "المزهر في أصول في اللغة" "الاقتراح في أصول النحو" "همع الهوامع في شرح جمع الجوامع" في النحو من تأليفه، وشرح ألفية ابن مالك في النحو، وشرح ألفيته هو في النحو وسماه "الفريدة" وكل هذه الكتب وغيرها يعتبر من عجائب المؤلفات في بابها وكذلك من عجائب ما ألّفه السيوطي في أصول هذه العلوم؛ وكل هذه المؤلفات وهذا المجهود العِلميّ العظيم هو من إنسان لم يُعَمّر كثيرًا حيث توفيَ وهو في الستين من عُمرُه.

٧- كما كان من أهمّ خصائص شخصية الإمام السيوطي: هي التجديد والاجتهاد، فقد وقف -رحمه الله - عند الحديث النبوي المشهور الذي هو مفتاح قضية الاجتهاد والتجديد، والذي قال فيه ﷺ: (إن الله يبعث لأمتي على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها) [1]. لذا اخترق الإمام السيوطي حاجز الصمت وفتح باب الاجتهاد، وألّف مؤلفات بحثيّة لدراسة هذا الحديث النبوي الشريف، ورصد من خلال معرفته بالتاريخ الإسلامي لإحصاء العلماء الذين يمكن أن يوصفوا بالمُجدّدين من بداية القرن الأول وحتى عصره الذي عاش فيه والذي عَدّ السيوطيّ نفسه مجدّدًا له، مع أن التجديد والاجتهاد يكون بدراسة معايير التجديد وشروطه ومجالاته وضوابطه وآفاقه، وقد ترك لنا - رحمه الله - عددًا من المؤلفات في هذه القضية الكبيرة، فترك لنا السيوطيّ أرجوزة من رائق شِعره اسماها بـ "تحفة المهتدين في نظم أسماء المجددين"، ثم شرحه في كتاب اسمه "التنبِئَة بمن يبعثه الله تعالى على رأس المئة"، وغيره من المؤلفات له في هذا الباب، والذي تتابع العلماء بعده على التأليف في قضية التجديد، حيث أَلّف الإمام الكبير (محمد حامد المراغي الجرجاوي) كتاب "بغية المقتدين في أسماء المجددين"، وكذلك الأستاذ (أمين الخولي) كتاب

(١) رواه أبو داوود والنسائي والحاكم في المستدرك وصححه السخاوي وغيره.

"المجددون في الإسلام"، وكذلك الشيخ (عبد المتعال الصعيدي) كتاب "المجددون في الإسلام"، ومن ثم كثُرت المؤلفات في هذا الباب والذي كان له الباع الكبير فيها الإمام السيوطيّ.

٨- مما تميّز به الإمام السيوطي العلاقات العلمية الواسعة والمتشعبة سواء داخل مصر أو خارجها، فقد سار بذكرِه الرُّكبان في حياته وفي فترة وجيزة من السنوات حيث شرّق الناس وغرّبوا بسيرته وكُتُبه، إذ تسامع بمؤلفاته علماء الأقطار، ومن ثم جاءت إليه المراسلات تستفتيه وتطالبه بالكتابة والتحرير لعدد من المسائل العلمية، أو تطلب منه الإسعاف بمسألة من المسائل العلمية الخلافيّة التي لم يصل فيها علماء هذه المناطق إلى رأيٍ واضح، فكان -رحمه الله – الجسر العلميّ الواسع الرابط بين الأمم والشعوب المسلمة والتي رأت في السيوطي الشمس الساطعة في الديار المصرية، لذا سارع الجميع للتواصل والعلمي معه بعد إقرارهم له بالعِلم وسِعة الاطلاع.

ومن أمثلة هذا الإقرار بالعلم من علماء المشرق والمغرب، ما جاءه من خطاب ورسائل من علماء "التكرور"[(١)]، يطلبون من الإمام جلال الدين السيوطي أن يؤلف لهم كتابًا في الإجابة على بعض مسائلهم الدقيقة الشائكة التي طلبوها منه، فما كان منه إلّا أن ألّف كتابًا اسمه "فتح المطلب المبرور وبَرد الكَبِد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من علماء التكرور"، مما يدل على أن السيوطي كان بمثابة شمس سطع نورها على المشارق والمغارب.

كما ترك لنا الإمام السيوطي مؤلفًا عجيبًا يدلّ على عبقريته الفذّة في الدفاع عن البيئة المحيطة به، ويدلّ على مدى حُبّه لدينه ووطنه، هذا المؤَلَّف

(١) إقليم التكرور هو حاليًا تقريبًا يبدأ من غرب السودان حدود دارفور ويشمل جمهوريات تشاد ومالي والسنغال ويجيريا وغيرها، وهو نطاق جغرافي واسع يشمل عدة دول.

اسمه "الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر"، وقبل هذا الكتاب نَظَمَ منظومته الرائيّة (النهر لمن برز على شاطئ النهر) كما له مؤلَّفات عديدة في هذا المجال تكلم فيها بما لم يُسبق إليه في أهمية حماية البيئة وحماية شطوط الأنهار والبحار والحفاظ عليها وأنها ملكًا للدولة وليست لأحدٍ مهما بلغَ منصِبه في الدولة، وقيل في سبب تأليفه لهذا الكتاب وتلك المنظومة أن واحدًا من الوجهاء أو الأمراء المعاصرين له كان يسكن على شاطئ نهر النيل، فأزاح جانبًا من جدار بيته ومن ثمّ توَسّع في حرم النهر مما اضطره إلى أن يحدث ردمًا في نهر النيل، فخرج الإمام السيوطي بهذا الكتاب النادر المسمى "بالجهر بمنع البروز على النهر" ونقل فيه كلام الفقهاء من أصحاب المذاهب الأربعة بالمنع وعدم جواز البناء على شواطئ الأنهار وأنها لا تُملَك ولا تُحيَى بالمباني إلا ما كان مبنيًا منها بالفعل، فيمنع إحداث شيء جديد[1].

مكانة الإمام السيوطي العلمية.

كان الإمام السيوطي بحق عبارة عن دائرة معارف متكاملة كما كان تجربة فريدة لعالِم كبير من علماء المسلمين، فقد كان - رحمه الله - إمامًا عالمًا تقيًا ورعًا صاحب ذكر وعبادة، وكان نموذجًا حيًّا لكثير من القيم الإسلامية والإنسانية، كما كان مثالًا حيًّا للهمة والطموح، وتجسيدًا للعقلية العلمية الناقدة البصيرة، كما كان صاحب شخصية عِلميّة قوية آسرة، وكذلك صاحب سلطان روحي يمتلك القلوب والعقول، حتى ألَّف تلامذته مؤلَّفات في سيرته الشخصية، منهم تلميذه الإمام عبد القادر الشاذلي الذي كتب كتابًا طبع في المجمع العلمي في دمشق اسمه "بهجة العابدين في ترجمة حافظ العصر جلال الدين" بتحقيق الدكتور عبد الحكيم الأنيس. وكذلك كتاب "الإمام السيوطي

(١) الحاوي في الفتاوي، جلال الدين السيوطي (١: ١٥٨).

وجهوده في علوم القرآن" للدكتور محمد يوسف الشربجي يتكلم فيه عن جهود الإمام السيوطي في التفسير وعلوم القرآن. وكتاب آخر بعنوان "الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي وجهوده في الحديث وعلومه" للدكتور بديع السيد اللحام يدور حول حياة الإمام السيوطي في علوم الحديث، وهناك كتاب آخر للأستاذ: إياد خالد الطباع تحت عنوان "الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي مَعْلَمَة العلوم الإسلامية".

كذلك قام بعض العلماء بمحاولة إحصاء ما كتبه الإمام السيوطيّ من مؤلفات، مما هو مستطاع من مكتبات العالم التي فيها كتب أو مخطوطات الإمام السيوطي، بعنوان "دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها"، وقد أحصوا للإمام السيوطي حوالي سبعمائة وثلاثة وسبعين كتابًا، لها نسخ خطية في مكتبات العالم المختلفة.

وليس هذا فحسب بل نظرًا للمكانة العلميّة للسيوطي - رحمه الله-فقد اهتم العلماء حتى بقبره ومكانه الذي دفن فيه، حيث أَلَّف العبقري الكبير أحمد تيمور باشا كتابًا بعنوان "قبر الإمام السيوطي وتحقيق موضعه"، حيث ذَكَر أن قبر الإمام السيوطي في مكان خاص مواجهٌ لمسجد السيدة عائشة قُرب مسجد السلطان حسن، وقد رسم الأستاذ أحمد تيمور باشا عدد من الخرائط والبحث التاريخي المفصل لقبر السيوطي وذلك لأن بعض الناس كانوا يظنون أنه مدفون في أسيوط من صعيد مصر بالمسجد المنسوب إليه" مسجد جلال الدين السيوطي" لذا حقق المؤلف أن هذا غير صحيح، وأنه ولد في القاهرة وعاش فيها ومات ودفن فيها، حتى وإن سافر السيوطيّ إلى مختلف المدن المصرية وغيرها من بلاد الإسلام، وقد سافر إلى مسقط رأس آبائه وأجداده بأسيوط، وألّف فيها كتابًا اسماه "المضبوط في أخبار أسيوط" كما أَلَّف في

أسيوط مقامة أسماها "المقامة السيوطية" مما يدلّل على وجوه الإفادة والتألق والنبوغ في حياة السيوطي الإمام العَلَم الفذّ الذي اتفقت كتب التراجم والرجال على أنه كان من أعلام عصره، بل من كبار علماء الإسلام على مر العصور.

ومن أبرز معالم مكانته العلمية.

أولاً: غزارة علمه وتنوع تخصصاته العِلميّة.

فالسيوطي -رحمه الله - لم يكن متخصصًا في علم واحد فقط، بل برع في أكثر من ١٥ فنًّا من فنون العلم، أبرزها: الحديث: حتى لقّب بـ المحدّث وحافظ العصر.

التفسير وعلوم القرآن: له مؤلفات مرجعية في هذا الباب مثل الإتقان والدر المنثور.

الفقه وأصوله: كان شافعي المذهب، وله مؤلفات في القواعد الفقهية مثل الأشباه والنظائر.

اللغة والنحو: ألف كتبًا في اللغة والبلاغة والنحو، وله شروح على كتب كبرى مثل ألفية ابن مالك.

التاريخ والسير: مثل تاريخ الخلفاء وحسن المحاضرة.

التصوف والتزكية: كتب في السلوك والتصوف السني المعتدل مثل: القول الجلي في حديث الولي. إعمال الفكر في فضل الذكر. نتيجة الفكر في الجهر بالذكر.

كما كان له منهجه العِلميّ في النقد والنقل: فقد كان يدقق في النقل ويعتمد على الروايات الصحيحة، خصوصًا في الحديث والتفسير.

كما عرف بميوله إلى تحقيق الروايات وتمييز الصحيح من الضعيف. ودافع عن العلوم الإسلامية بقوة ضد الفلسفة والمنطق الإغريقي، فقد ألّف كتابه الشهير (القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق) وكان من المؤيدين للرجوع إلى النصوص الشرعية الخالصة.

ثانيًا: الاجتهاد والإمامة

حيث اعتبر نفسه من المجدّدين، كما عده كثير من العلماء من المجتهدين أي من الذين بلغوا رتبة الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وليس فقط مقلدًا لمذهب معيّن، وقد صرّح هو بذلك في بعض كتبه، فقال:

"بلغت رتبة الاجتهاد، واجتهدت في نحو من خمس وأربعين مسألة، وأفتيت فيها بخلاف المعتمد في المذهب".

ثالثًا: ثناء العلماء عليه

قال الشوكاني[1]: "السيوطي أحد المجددين، له اليد الطُّولى في علوم الحديث والتفسير والفقه وغيرها، ويُعد في علماء الدنيا".

وقال ابن العماد الحنبلي[2]: "كان إمامًا حافظًا محدثًا مفسرًا لغويًا أصوليًا، لا يشق له غبار".

وقال عنه أيضًا "المُسْنِد المحقِّق المدقِّق، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة".

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن. ولد بهجرة شوكان ١١٧٣هـ. بصنعاء. وولي قضاءها حتى مات بها ١٢٥٠هـ له مؤلفات، منها: (نيل الأوطار)، و(فتح القدير) في التفسير، و(البدر الطالع) في التراجم، الأعلام للزركلي، (٢٩٨/٦).

(٢) سبقت ترجمته.

وقال السخاوي[1]:

(وكان من معاصريه ولم تكن العلاقة بينهما طيبة): "لا يُنكر أحد غزارة حفظه وكثرة تآليفه".

وقال عنه تلميذه الداودي[2] "وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه رجالاً وغريبًا، ومتنًا وسندًا، واستنباطًا للأحكام منه، وأخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث؛ قال: ولو وجدت أكثر لحفظته. قال: ولعله لا يوجد على وجه الأرض الآن أكثر من ذلك.

وقال عنه تلميذه عبد القادر بن محمد: هو الأستاذ الجليل الكبير، الذي لا تكاد الأعصار تسمع له بنظير.. شيخ الإسلام، وارث علوم الأنبياء، فريد دهره، ووحيد عصره، مميت البدعة، ومحيي السنة، العلاَّمة البحر الفهامة، مفتي الأنام، وحَسَنَة الليالي والأيام، جامع أشتات الفضائل والفنون، وأوحد علماء الدين، إمام المرشدين، وقامع المبتدعة والملحدين، سلطان العلماء ولسان المتكلمين، إمام المحدِّثين في وقته وزمانه".

وفاته:

بعد أن اعتزل الناس في آخر حياته وتفرغ للتأليف، وافته المنِيّة في منزله بروضة المقياس في القاهرة سنة ٩١١هـ.

---

(١) محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي: مؤرخ حجة، وعالم بالحديث والتفسير. أصله من سخا (من قرى مصر) ولد في القاهرة ٨٣١هـ، ووفاته بالمدينة ٩٠٢هـ له كتب منها: (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع)، و(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ). ينظر: الأعلام للزركلي، (٦/ ١٩٤).

(٢) محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المصري: شيخ أهل الحديث في عصره، من تلاميذ جلال الدين السيوطي. توفي بالقاهرة ٩٤٥هـ له كتب، منها (طبقات المفسرين) و (ذيل طبقات الشافعية للسبكي) و (ترجمة السيوطي) في مجلد ضخم. الاعلام للزركلي، (٢٩١/٦).

الدروس المستفادة من حياة السيوطيّ:

حياة السيوطي مليئة بالعبر والدروس، ومن أبرز الدروس المستفادة من حياته:

١. طلب العلم منذ الصغر. فقد بدأ السيوطي طَلَب العلم في سنٍّ مبكرة، وتفرغ له كليًا. وأكرمه الله بالتعلم على يد كبار علماء عصره. وهذا يوضّح لنا أهمية البدء بطلب العلم مبكرًا والحرص على الاستفادة من العلماء.

٢. الطموح والاجتهاد والهمّة العالية: فقد عُرِف بكثرة التأليف، حتى قيل إنه ألّف نحو ٦٠٠ كتاب أو أكثر. كان يكتب من حفظه، ويؤلف بسرعة هائلة، مع الضبط والإتقان، يستفاد منه -رحمه الله - أن الاجتهاد والمثابرة يُوصِل الإنسان إلى القِمّة، لكن مع استثمار الوقت وعدم تضييعه.

٣. استقلاليته العلميّة: لم يتردد الإمام السيوطي في مخالفة بعض علماء عصره إذا رأى الصواب في غير رأيهم، ومع مخالفته لبعض شيوخ وعلماء عصره، وخصومته لهم في قضايا علمية وفكريّة إلا أنه لم ينجرّ إلى تجريحهم أو انتقاصهم. ويستفاد من هذا الشجاعة في إبداء الرأي العلمي مع أدب الحوار واحترام الآخرين.

٤. الزهد في المناصب: فقد اختار السيوطي اعتزال الناس والاعتكاف على التأليف والعبادة، في آخر حياته، ورفض الكثير من عروض المناصب. يستفاد من هذا أن العلم يجب أن يكون لله، ولا يُطلب للدنيا والجاه.

٥. خدمة الأمة بالعلم: حيث ألّف السيوطي الكُتب الميسّرة التي تخدم العامة والخاصة، مثل: "الدر المنثور"، و"تفسير الجلالين"، و"الأشباه والنظائر"، وعني بالجمع والتيسير والتعليم، مما جعل كتبه مرجعًا إلى يومنا هذا.

لذا يُعرف العالِم الحقيقي بأنه هو مَن يُسخّر عِلمه لخدمة الناس، لا للتعقيد أو الاستعراض.

٦. التنوع العلميّ والمعرفي عند السيوطيّ: فلم يحصر نفسه في تخصص واحد، بل كتب في علوم متعددة، من التفسير إلى الطب. ونستفيد من ذلك أن الانفتاح على فروع العلم المتعددة يُثري التفكير ويقوي المنهجية.

الأسئلة:

١. ما الاسم الكامل للإمام السيوطي؟

٢. في أي سنة وفي أي مدينة وُلد جلال الدين السيوطي؟

٣. مَن والد الإمام السيوطي، وماذا تعرف عن عِلمه وعمله؟

٤. مَن أبرز شيوخ السيوطي الذين أخذ عنهم العلم؟ وما سبب شهرته الكبيرة بين علماء عصره؟

٥. في أي سنة تُوفي الإمام السيوطي؟

٦. ما اسم الكتاب الذي شارك فيه الجلال المحلي في التفسير؟

٧. ما أشهر كتاب للسيوطي في علوم القرآن؟

٨. ما أهم كتابه الذي ألّفه في تاريخ الخلفاء؟ وما أهمّ كتابه في تفسير القرآن معتمدًا على الأحاديث والآثار؟

٩. ما المذهب الفقهي الذي كان يتبعه السيوطي؟ وهل بلغ السيوطي رتبة الاجتهاد المطلق؟

١٠. في أي فنون العلم برع الإمام السيوطي؟ اذكر ثلاثة على الأقل؟

٦- الكسائي وعدم التكبر على طلب العلم

في حياة بعض الناس، تمر لحظاتٌ تُشبه الشرارة.. لكنها تُشعل في القلب نارًا لا تنطفئ لتضيء للناس طريقهم إلى الله، وتصنع من الحرجِ عزيمةً لا تعرف الخَوَر، ومن اللحنِ في الألفاظ رسالةً تُعدّل من لسان الناس، ومن السخريةِ مشروعَ حياةٍ يُخلّد صاحبه في سجلّات الأمة. ولعلّ هذا أصدق ما يُقال عن الإمام علي بن حمزة الكِسائي، إمام القرّاء، ومؤدّب الخلفاء، وراعي لسان الأمة. الإمام الكسائيّ هو أحد أكبر علماء القراءات المشهورين في تاريخ المسلمين، واسمه عليّ ابن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز[1]، مولى بني أسد، من أولاد الفرس من سواد العراق، وإليه انتهت رئاسة القراءة بالكوفة بعد وفاة شيخه الإمام حمزة الزيات. وحتى نعرف معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]. قوله أكرمكم ليس بالنسب ولا الحسب ولكن بالتقوى والعلم، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. وهذا ما يؤيده واقع الإسلام مع أتباعه على الحقيقة وفي تاريخ الأمة الإسلامية، فنجد الإمام الكسائي أصوله فارسية، فهو من غير العرب ولا قرابة له من رسول الله ولا صلة له بقريش أفضل قبائل العرب لأن منها رسول الله، كل هذا ليس موجوداً عند الكسائي -رحمه الله – بل بعض أجداده كان من عبدة النار، لكن الله -سبحانه وتعالى- منَّ عليهم بالإسلام بعد الفتح الإسلامي لبلاد فارس، ومن ثم صار من موالي بني أسد القبيلة القرشية

(١) الأعلام للزركلي، (٢٨٣/٤).

المعروفة، وبعد الإسلام كان من أحفاد هؤلاء عَبَدة النار أحد عظماء الإسلام ومن كبار شيوخ القراءات والذين وصلنا القرآن من طريقهم ألا وهو الإمام الكسائي، وهذا مصداق قوله ﷺ في حديث -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (**يا أيها الناسُ! إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإن أباكم واحدٌ، ألا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى إنَّ أكرمَكم عند اللهِ أتقاكُم، ألا هل بلَّغتُ؟ قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ قال: فيُبَلِّغُ الشاهدُ الغائبَ**) رواه أحمد وغيره. من هؤلاء الذين رفعهم الإسلام ورفعهم العِلم، وصاروا من أعلام الإسلام الذين يُشار إليهم بالبنان على مرّ العصور وحتى زماننا وإلى ما شاء الله، كان الإمام العَلَم الفذّ عليّ بن حمزة الكِسائيّ، كيف لا يرفعهم العِلم والله يقول: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١]. وقد وصل في العِلم حتى أن من يترجم له من العلماء يذكر له من الألقاب ما لم يُلقب به إلا القليل من العلماء الثقات الأفذاذ، فيترجمون له بقولهم: الإمام الحجة، شيخ قراء الكوفة، وإمام المسلمين في القراءات والعربية، فريد عصره في لغة العرب، وأعلم أقرانه بالغريب، ومن أعظم أعلام الكوفة في العصر العباسي.

نشأة الكسائي وتكوينه العلمي:

وُلد الإمام الكسائي في الكوفة سنة نحو ١١٩هـ ويُعد الإمام الكسائي - رحمه الله - سابع القراء العشرة المشهورين، وتُنسب إليه القراءة الكوفية، وهي إحدى القراءات العشر المتواترة.

القُرّاء العشرة ورُواتُهم هم:

١ – نافع المدني: روى عنه قالون وورش.

٢- ابن كثير المكي: روى عنه البزي وقنبل.

٣- أبو عمرو البصري: روى عنه الدوري والسوسي.

٤- ابن عامر الشامي: روى عنه هشام وابن ذكوان.

٥- عاصم الكوفي: روى عنه شعبة وحفص.

٦- حمزة الكوفي: روى عنه خلف وخلاد.

٧- الكسائي الكوفي: روى عنه أبو الحارث والدوريّ.

٨- أبو جعفر المدنيّ: روى عنه ابن وردان وابن جماز.

٩- يعقوب الحضرمي: روى عنه رويس وروح.

١٠- خلف بن هشام: روى عنه إسحاق وإدريس.

نشأ الإمام الكسائي في الكوفة، والكوفة آنذاك تُعدّ إحدى الحواضر العلمية الكبرى في ذلك العصر، وتلقى فيها الكسائي وغيره من العلماء العلوم الأولى، كما اهتَمّ مبكرًا بتعلُّم اللغة العربية والقرآن الكريم، وكان شديد الحرص على طَلَب العِلم وخاصة اللغة العربية وعلومها، حتى أنه رَحَل إلى البوادي ليأخذ الفصاحة واللغة من أفواه العرب الخُلّص الذين لم تختلط ألسنتهم بالعُجمى، حتى قيل عنه أنه تتبع لهجات العرب وأخذها من أصحابها، وخاصة قبائل بني أسد وهذيل وتميم، كما جلس إلى الأعراب ليتلقى عنهم اللغة كما كانت قبل أن يدخلها اللحن حتى صار إماماً في اللغة والنحو والقراءة بلا منازع.

قيل: في سبب تسميته بالكِسائيّ: لأنه كان يحضر مجلس شيخه الإمام حمزة بالليل ملتفًا في كساء، وله قصة في هذا مع شيخه حمزة الزيات وهي: أنّ

حمزة لم يكن يعرف الكسائي، في بداية الأمر فكان لابسًا لكِساء، وجلس يقرأ على شيخه، وكان من عادة حمزة أن يجعل كل طالب يقرأ عليه ثلاثين آية، لكن الكسائي أكمل حتى وصل لأربعين آية من شِدّة إعجاب الإمام حمزة بقراءة الكسائيّ، ثم قال له أكمل حتى وصل إلى المئة آية، ثم في اليوم التالي قال حمزة الزيات ولم يكن يعرف الكسائي أنه موجود، فقال: أين صاحب الكساء؟ فبحثوا عنه وأتوا به حتى يقرأ على الإمام حمزة، فاشتُهر بين طلبة العلم وبين العلماء بالكسائي؛ أي صاحب الكساء. وقيل: لأنه أحرم في كساء، وقيل: نسبة لبيع الكساء أو نسجه أو الاشتمال به ولبسه [1].

مكانة الكسائي وثناء العلماء عليه:

يعتبر الإمام الكسائي هو أحد القراء السبعة الذين اختارهم الإمام ابن مجاهد في كتابه "السبعة في القراءات"، كما أنه صاحب القراءة المشهورة بـ "قراءة الكسائي"، التي رواها عنه أبو الحارث وحفص الدوري، كما تميزت قراءته بخصائص صوتية ولفظية خاصة، مثل: الإمالة: والتي اختص بها في هاء التأنيث عند الوقف عليها بشروطها، وكذلك ذوات الياء وغيرها، وإدغام المثلين والمتقاربين في بعض الحروف. والميل إلى التخفيف في بعض المواضع الصوتية بما هو متواتر عن النبيّ ﷺ، وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب القراءات.

كما كان الكسائي جامعًا بين العلم والعمل والتقوى، فجمع بين علوم القرآن واللغة والنحو والقراءات، وكان يُعد إمام أهل الكوفة في زمنه، وإليه انتهت إمامة القراءة والنحو واللغة، وقد مدحه العلماء كثيرًا، فقال عنه الإمام الذهبي: "كان الكسائي إمام الناس في القراءة والنحو، وإليه انتهت الرياسة فيهما".

(١) تهذيب التهذيب، ابن حجر، (٢٧٥/٧)، معرفة القراء الكبار، الذهبيّ، (١٢٣/١). معجم حفاظ القرآن، محمد سالم محيسن، (٤٤٢/١).

وقال فيه الإمام أحمد بن حنبل: "الكسائي أعلم الناس بالنحو والقراءة". وقال ابن الجزري: "كان الكسائي إمام الناس في القراءة في زمانه، وأعلمهم بالقراءات". وقال ابن معين: "ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي" وسمع من الإمام جعفر الصادق، وسليمان بن مهران الأعمش، وسليمان بن الارقم، وقرأ القرآن وجوّده على الإمام حمزة الزيات، وعيسى بن عمر الهمداني.

وروى أبو عمرو الداني وغيره أن الكسائي قرأ على: محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، واختار لنفسه قراءة، ورحل إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد الفراهيديّ إمام النحو وشيخ سيبويه.

وقال الذهبي: وأخذ الكسائي الحروف أيضا- أي حروف القراءات- عن أبي بكر بن عياش (شُعبة) وغيره، وخرج إلى البوادي، فغاب مدّة طويلة، وكتب الكثير من اللغات، والغريب، عن الأعراب بنجد وتهامة، ثم قدم وقد أنفد خمس عشرة قنّينة[1] حبر، واشتُهر الكسائي بتَلَقِّي القراءات على الإمام حمزة بن حبيب الزيات وهو الإمام السادس، وسند حمزة صحيح ومتصل برسول الله ﷺ. وأخذ عنه عدد كثير من العلماء الكبار، من أبرزهم: أبو عُمَر الدُّوريّ، وأبي الحارث، وهما الذَّين رويا عنه قراءته المعروفة والمنسوبة له، ونصير بن يوسف الرازي، وقتيبة بن مهران الأصبهاني، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وتلميذه الخاص هو النحوي الشهير يحيى الفرَّاء، كما تتلمذ عليه بعض أبناء الخلفاء العباسيين، فقد كان -رحمه الله - مؤدِّبًا للأمين والمأمون أولاد الخليفة هارون الرشيد، بل كان مؤدِّبًا للخليفة الرشيد نفسه، وخلق سواهم.

كما تحدث العلماء عن قوة حفظه ومتانته، يقول الإمام خلف بن هشام - القارئ العاشر- كنت أحضر بين يدَي الكسائي، وهو يقرأ على الناس،

(١) القِنّينَة: هي الدواة التي يكون فيها الحِبر الذي يُكتب به.

وهم ينقطون مصاحفهم بقراءته عليهم. وقال أبي عُبَيد القاسم بن سلام كان الكِسَائيّ يتخيّر القراءات، فأخذ من قراءة حمزة ببعض وترك بعضا، وكان من أهل القراءات، وكانت القراءات عِلمه وصناعته، ولم نجالس أحدا كان أضبط ولا أَقوَم بها منه.

رُبّ خطأ كان سببًا في الإمامة:

كان علي بن حمزة غلامًا كسائر الغلمان، لا يُعرَف بين الناس بعلمٍ ولا أدب. وفي يومٍ من الأيام، أخطأ في تركيب جملة أمام أحدهم فقال: "رأيتُ زيدٌ"، فضحك عليه رجلٌ وقال: "أمثلك يلحن؟!" لحظة سخريةٍ عابرة، لكنها غرست في قلبه وجعًا لا يُشفى، فأقسم: "واللهِ لا أُلحِن بعدها أبدًا!" [1]. وهكذا كانت بداية الإمام الكِسائيّ، دمعةُ استحياءٍ صادقة، لا صَخَب معها ولا غضب، بل عزمٌ قويّ صار بعده أستاذًا للغة والأدب، بل صار صاحبًا ومؤسِّسًا لمذهبٍ نحويّ كامل!

ولقد كان الكسائي - رحمه الله - ثقة، وأمينا في نقله قراءات القرآن، وتاريخه الناصع خير شاهد على ذلك. قال أبي العباس بن مسروق: حدثنا سلمة بن عاصم قال: قال الكسائي: صليت بهارون الرشيد فأعجبتني قراءتي، فغلطت في آية ما أخطأ فيها صبيّ قط، أردت أن أقول: «لعلهم يرجعون» فقلت: «لعلهم يرجعين» فو الله ما اجترأ هارون الرشيد أن يقول أخطأت، ولكنه والله لما سلم قال: أيّ لغة هذه؟ قلت: يا أمير المؤمنين قد يعثر الجواد، قال: أما هذه فنعم. فهذا الخبر إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على شجاعة الكسائي وأمانته في العلم، وقال الفراء، إنما تعلم الكسائي النحو على كِبَر، لأنه جاء إلى قوم، وقد

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٤١٨/٨).

أعيا، فقال: قد عييت، فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن؟ قال: كيف لحنت؟ قالوا له: إن كنت أردت من التعب فقل: «أعييت» وإن كنت أردت انقطاع الحيلة والتحيّر في الأمر، فقل «عييت» فأنف من ذلك وقام من فوره فسأل عمن يعلّم النحو، فدلّ على معاذ الهرّاء فلَزِمَه، ثم خرج إلى البصرة، فلقي الخليل بن أحمد ثم خرج إلى بادية الحجاز[١].

ويُعد الإمام الكسائي أحد مدرسَتَي النحو الكبيرتين: مدرسة الكوفة وهي التي يمَثلها الكسائي ومعه أخرون، (في مقابل مدرسة البصرة التي يمثلها سيبويه). وكان مناظِرًا لسيبويه في إحدى المناظرات الشهيرة التي وقعت في مجلس هارون الرشيد، وقد قيل إن الكسائي تفوق على سيبويه في هذه المناظرة، ما ساعد على انتشار مذهبه النحوي وازدهار مدرسة الكوفة، وكان يميل إلى تبني ما وافق لسان العرب في البادية. قال ابن الأنباري: اجتَمَعَت في الكسائي أمور: كان أعلم الناس بالنحو، وواحدهم في الغريب، وكان أوحد الناس في القرآن فكانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط الأخذ عليه، فيجمعهم، ويجلس على كرسي، ويتلو القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون ويضبطون عنه، وقال الشافعي: من أراد أن يتبحر في النحو فهم عيال على الكسائي[٢].

قال الفَرَّاء، إنما تعلم الكسائي النحو على كِبَر، لأنه جاء إلى قوم، وقد أعيا، فقال: قد عييت، فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن؟ قال: كيف لحنت؟ قالوا له: إن كنت أردت من التعب فقل: «أعييت» وإن كنت أردت انقطاع الحيلة والتحيّر في الأمر، فقل «عييت» فأنف من ذلك وقام من فوره فسأل عمن يعلّم

(١) «معجم حفاظ القرآن، محمد محيسن (٤٤٥/١).
(٢) انظر: معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، محمد سالم محيسن (١/ ٤٤٥)، معرفة القراء الكبار، الذهبي، (١٢٢/١).

النحو، فدلّ على معاذ الهرّاء فلَزِمَه، ثم خرج إلى البصرة، فلقي الخليل بن أحمد ثم خرج إلى بادية الحجاز.

مما سبق يتبيّن لنا أنّ الإمام الكسائي في بداية طلبه للعلم لم يتعود الجلوس مع علماء اللغة ليأخذ عنهم، فهو لم يطلب العلم في صِغَره، لكن لم يمنعه كِبَر سِنِّه من طلب العلم، فذهب ليجلس إلى بعض علماء اللغة ليستفيد من علمهم، فلما وصل إليهم قال كلمته التي كانت سببًا في طلبه للعلم وجعلته يجتهد وتعلو همّته ليصل لأن يكون رأس المدرسة الكوفيّة في اللغة، بل وعَلَمًا من أعلام القراءات العشرة الذين وصل إلينا القرآن عن طريقهم، قال لما وصل لمجلسهم وهو مُتعَبٌ جدا فقال: "قد عييت" يقصد الكسائي أنه تعب، فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن[1]؟! قال: كيف لحنت؟ قالوا: إن كنت أردت من التعب؛ يعني تريد أن تقول: أنك تعبت فقل: أعييت لا تقول: عَيَيْتُ، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل: عَيِيتُ، فوجد نفسه لا يعرف ما يقولون، فَحَزن لذلك حُزنًا شديدًا، فقرر من ساعتها أن يطلب اللغة من أهلها وأن يتخصص فيها وأن يصل فيها لأفضل ما يُوصل إليه فيها، ولم يأخذ في نفسه أنه هو العالِم الكبير الذي يجب ان يُؤخذ منه العلم في القراءات وغيرها من العلوم غير النحو واللغة، ولم يأنَف من هذه الكلمة ولم يعتزل الناس ويترك العلم، كذلك لم يغضب منهم أو يستحي ويترك الطلب، كما يفعل الكثير من الناس الذين يتكبرون على العلم، ويتعللون بأنهم كبار السن أو المقام، فلا يقبلون أن يجلسوا تحت يدي من يُعلِّمهم في سِنّهم هذا أو في مقامهم ذاك، لا: لم يكن الكسائي على هذه الصورة من الناس، بل ذهب ليتعلم ووصل إلى ما وصل إليه من العلم حتى صار رأس المدرسة الكوفيّة في النحو

(١) اللحن: الخطأ في بناء الكلمة أو الجملة، إعراب الجملة، هذا الخطأ اللغوي قد يكون في الصرف أو في النحو.

واللغة وشهد له علماء عصره بذلك. بعد أن ذهب لبعض علماء عصره وأخذ عنهم العلم، من أمثال العالم الكبير معاذ الهرَّاء[١] أحد كبار علماء اللغة في الكوفة، ذهب له وجلس يتعلَّم على يديه وأخذ ما عنده من العلم، ولم يكتفي بهذا، بل ذهب إلى البصرة، وفيها الخليل بن أحمد[٢] أحد أقطاب اللغة في التاريخ الإسلامي، فتعلَّم على يد الخليل ابن أحمد، فرآه شخص جالس في المجلس فقال له: أنت تدرس هنا في البصرة عند الخليل بن أحمد وتركت أسدًا وتميمًا الذي أنت من مواليهم، وعندهم الفصاحة، وكما هو معروف أن الفصاحة في البدو في الأعراب، فقال للخليل بن أحمد من أين علمك؟ قال الخليل: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فتركه وذهب إلى هذه الرحلة الطويلة في طلب العلم، فذهب إلى نجد وإلى تهامة وتعلم وأنفذ أوراق كثيرة في الكتابة سوى ما حفظ، ورجع لكي يذهب للخليل بن أحمد، فوجد الخليل بن أحمد مات، ووجد مكانه يونس بن حبيب البصري، وهو أيضًا أحد أقطاب النحو في البصرة، فناظره يونس بن حبيب بعد أن عاد من رحلته الطويلة فوجده من العلماء في النحو قفدَّمه وأجلسه في مجلسه.

وما فعله الكسائي إنما هو سلوك نبوي، فهذا سيدنا موسى - عليه السلام- لما وقف وسُئِل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله كما تقول الرواية في

(١) أبو مسلم معاذ بن مسلم الكوفي الهرَّاء: النحوي، مولى محمد بن كعب القرظي، وروى عن عطاء بن السائب. ولد سنة ٩٧هـ، ولُقب بالهرّاء لأنه كان يبيع الثياب الهروية، وهراة مدينة في أفغانستان حالياً، له كتب في النحو ضاعت، وأخبار مع معاصريه كثيرة، وتوفي سنة187هـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٧/ ٤٣٢)، الأعلام للزركلي (٢٥٨/٧).

(٢) الإمام أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد الفراهيدي، البصري، صاحب العربية، ومنشئ علم العروض، أحد الأعلام. ولد سنة ١٠٠هـ، حدث عن أيوب السَّختياني، وعاصم الأحول، والعوام بن حوشب، وغالب القطان. أخذ عنه سيبويه النحو، والنضر بن شُمَيل، والأصمعي، وآخرون. وكان رأسًا في لسان العرب، دَينًا، ورعًا، قانعًا، متواضعًا، كبير الشأن، توفي سنة ١٧٠. سير أعلام النبلاء، (٩٧/٧).

البخاري فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين - هو الخضر - هو أعلم منك، قال موسى: أي رب كيف لي به؟ أول شيء خطر على ببال موسى - عليه السلام - كيف أذهب أتعلم على يديه؟ فدله الله- عز وجل- كما في القصة المعروفة في سورة الكهف. وهذا ما جعل الكسائي من أعظم علماء المسلمين في النحو والقراءات، حتى قال الشافعي - رحمه الله-: "من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيالٌ على الكسائي". قال يحيى الفراء وهو من كبار علماء النحو: "مدحني رجل من النحويين"، وقال لي: ما اختلافك إلى الكسائي وأنت مثله في العلم؟! قال: فأعجبتني نفسي فناظرته، فكنت كأني طائر يغرف من بحر.

وقال أبو بكر الأنباري ومن كبار رجال النحو في التاريخ الإسلامي يقول: "لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفرَّاء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس".

ورحل مؤدّب الأمراء، ومعلم الخلفاء:

لما سمع الخليفة هارون الرشيد بحسن بيانه، وقوة لغته، أمره أن يُؤدّب ولدَيه: الأمين والمأمون. واللَّذَينِ آلت لهما الخلافة بعد والديهما هارون الرشيد، فدخل الكِسائيّ القصر، ليس خادمًا كغيره من الغلمان، بل كأستاذ ومؤدِبٍ لأبناء الخليفة. وكان من حِكَمه التي يُربي عليها أولياء العهد الأمين والمأمون. قوله: "يا بُني، مَن ملك لسانه ملك قلوب الناس". فأحبّه الخلفاء والعلماء وطلاب العلم وعوام الناس، وكان من شدة احترام الرشيد للكسائي، كان إذا دخل على الرشيد، يقوم له الخليفة الرشيد إجلالًا واحترامًا، ويجلسه على كرسيّ بجانبه، فقال له أحد الحُجّاب: "يا أمير المؤمنين، تؤثر هذا الأعجمي وتُجلسه بجوارك؟!" فقال الرشيد: "ويحك! هذا إمام في القرآن واللغة، ما رُزِقتُ فصاحة

ولديّ إلا من يده"[1].

ومما يدلّ على رُقِيّ أخلاقه وحسن تعامله مع المخالف، ومدى عظمَته في حِفظ لسانه ومعرفة أقدار الناس وخصوصًا العلماء، مناظرته مع إمام العربية سيبويه، حيث اجتمع ذات مرة الكِسائي مع سيبويه في مناظرة نحوية أمام الرشيد، ودار الحوار في مسألة "كان وأخواتها"، فانتصر الكِسائيّ، ومالت الكفّة إلى الكوفيين. لكن الإمام لم يشمت، ولم ينتصر لنفسه، بل قال قولًا يليق بالعظماء: "سيبويه إمامٌ، لو عاش لكان له شأنٌ عظيم، ولكن لكل جوادٍ كبوة". وهذا إنما يدلّ على عظمة الإمام الكسائي - رحمه الله - لهذا قال هارون الرشيد خليفة المسلمين عن الكسائي عند وفاته، حيث خرج الإمام الكِسائي مع الخليفة في سفرٍ إلى خراسان، وهناك، أصيب بالحمّى، وتوفّي سنة ١٨٩هـ وتوفيَ مع الكسائي الإمام محمد بن الحسن، صاحب أبي حنيفة، في يوم واحد زمن الرشيد فدفنهما الرشيد، في نفس اليوم في بلاد الري، فقال الرشيد: "دفَنَّا اليوم الفقه واللغة في الري". وانظر ماذا قال هارون الرشيد عن الكسائي حيث نسبه إلى اللغة وليس إلى القراءات مع أنه عالما في القراءات ونُسبت إليه قراءة من القراءات المتواترة، لكن من شدة تبحره في النحو وعلو كعبه فيه، وقيمته العلمية في اللغة صار يُنسب إلى اللغة النحو، ولهذا قال الشافعي: "الناس عيالٌ في النحو أو في اللغة على الكسائي".

ما يستفاد من حياة الإمام الكسائي:

١. أنه لا يجوز للإنسان أن يتكبَّر على العِلم والتعلّم مهما كان سنُّه وعُمرُه، مهما كان وضعه الاجتماعي، ومهما كان مكانته العلمية، ومهما كانت

(١) انظر: الزركلي، الأعلام، ٤(/٣٠٧).

درجته العلمية، فلابد أنه سيستفيد من عالم أو حتى طالب علم أو حتى من عوامّ الناس، هنا أو هناك شيئًا جديدًا وهذا الذي فعله الكسائي - رحمه الله -.

٢. طلب العلم يحتاج إلى تعب وصبر. رحل الكسائي إلى البادية ليتعلم اللغة من الأعراب الخُلَّص.

لم يكتف بعلوم أهل الكوفة، بل تنقل وسمع من عدة شيوخ.

٣. اللغة العربية تحتاج إلى ضبط وسماع من مصادرها الأصلية، أدرك أهمية سماع اللغة من أهلها العرب الأقحاح فذهب إليهم. هذا يعكس أهمية الرجوع إلى الأصول لفهم القرآن واللغة.

٤. الاجتهاد في أكثر من علم يرفع مكانة العالم. فقد جمع بين النحو والقراءات واللغة والقرآن.

أصبح إمامًا في النحو والقراءة معًا، وكان يُرجَع إليه في المسائل الكبرى.

٥. تواضع العلماء رغم علمهم: رغم علمه الواسع، بقي ملازمًا للتعلم، ولم يزدرِ آراء الآخرين.

لم يتعالَ في مناظراته مع العلماء الآخرين.

٦. نفع الناس والتعليم من أرقى المراتب: تولى الكسائي تعليم أبناء الخلفاء، وهذا يدل على ثقته ومكانته.

كان مؤثرًا في تلاميذه مثل الفراء، الذي صار نحويًا كبيرًا.

٧. الاجتهاد في خدمة القرآن: اهتمام الإمام الكسائي بالقراءات يدل على خدمته القرآن وتعلمه وتعليمه. قراءته أصبحت إحدى القراءات السبع المتواترة. كما يستفاد من حياة الكسائي أن الخطأ الصغير قد يُغيّر مسار أمة

بأكملها وأن الفقر أو الحسب لا يمنعان من بلوغ القمة، ومَن أخلص في طلب العلم أورثه الله القبول في الدنيا والآخرة، ومَن تواضع للناس رفعه الله حتى على الملوك.

الأسئلة:

١. ما اسم الإمام الكسائي الكامل؟

أبو الحسن عليّ ابن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز، مولى بني أسد، من أولاد الفرس.

٢. لماذا لُقّب بالكسائي؟

٣. من هو أشهر تلميذ نحوي للكسائي؟

٤. في أي مدينة وُلد الكسائي؟

٥. من الخليفة الذي صاحب الكسائي في سفره إلى الري؟

٦. ما السبب الذي دفع الكِسائيّ إلى تعلُّم النحو؟

٧. إلى أين رحل الكِسائيّ ليتعلّم اللغة العربية من منبعها؟

٨. ما أهم العلوم التي برع فيها الإمام الكِسائي؟

٩. من هما الولدان اللذان تولّى الكِسائيّ تأديبهما في بيت الخلافة؟

١٠. متى توفي الإمام الكِسائيّ، وأين؟

***

٧- عباس بن فرناس

الرَجُلُ الذي طَارَ بِحُلْمِهِ

في إحدى زوايا التاريخ الإسلامي المضيء في بلاد الأندلس، وُلِد طفلٌ مسلمٌ أمازيغيّ العِرق يُدعى عباس بن فرناس بن ورداس التاكرتي الأندلسي، في مدينة رُندة سنة ١٩٦هـ كان محاطًا بجبال الأندلس الخضراء الشامخة، فكبرت معه الهمّة، كيف لا وهو المسلم الذي يعرف أنه خُلق ليعمّر الأرض، ويُحلّق بالإنسانية عاليًا، لا أن يبقى حبيس مكانه في الأرض، نشأ عباس بن فرناس في بيئةٍ تتمازج فيها الحضارة الإسلامية مع العِلم الإغريقي والفكر اللاتيني. ثم انتقل إلى قرطبة – قلب الأندلس – حالمًا أن يتجاوز السقف المعهود، وأن يضع للعلم أجنحة يطير بها في سماء الأندلس الزاهرة بالعلم والثقافة، في هذه الأثناء بزغ نجم هذا الرجل الفذّ عباس بن فرناس، الذي كان بحق وبجدارة سابقًا لعصره بأفكاره وابتكاراته، فهو لم يكن مجرد عالِم بالعلوم الحياتية أو العلوم الشرعية وفقط، بل كان مثالًا للعقل المسلم الحُرّ الذي حرّره الإسلام من القيود، فهو لا يرضى بالحدود الضيقة، فاشتغل في الفلك والكيمياء والطب والهندسة والبصريات ومع كل هذا كان بارعا في العلوم الشرعية حتى أن كان يُلقب بحكيم الأندلس،. ومن حُسن حظه وحظ البشرية جمعاء أنه وُلد في القرن الثاني للهجرة، وعاش في ظل الدولة الأموية بالأندلس دولة العلم والعلماء، فاستفاد من هذه البيئة العلمية الغنية بالعلوم والحكمة والتي دعمت الإبداع والاختراع، فقد كان قلبه مشغوفًا بكل ما يُثير العقل من فلسفة، ورياضيات، وفلك، وبصريات. تتلمذ على الكتب، وجعل من المكتبة محرابًا، ومن الفكرة عبادة، ومن السؤال طريقًا إلى الاختراع. حفظ العربية

واللاتينية واليونانية، فقرأ لأرسطو وبطليموس، لكنه لم يكتفِ بما قرأ، بل قرّر أن يضيف إلى الوجود بصمة جديدة ويترك أثرًا لا يزال حاضرًا إلى اليوم وإلى ما شاء الله، فكانت محاولة الطيران الأولى في تاريخ البشرية [1].

في ظلال حضارةٍ تُحبّ العلم ينشأ عالمٌ لا يعرف الحدود:

ولد عباس بن فرناس في مدينة رُندة جنوب الأندلس سنة ١٩٦ هـ لأسرة أمازيغية الأصل. ونشأ في بيئة متعددة الثقافات، حيث كانت الأندلس آنذاك ملتقى العلماء من مختلف المشارب. وانتقل صغيرًا إلى قرطبة، عاصمة العلم والحكم، حيث تلقى علومه الأساسية من اللغة والفقه، ثم اتجه إلى علوم الطبيعة والرياضيات والفلك فهو - رحمه الله - لم يكن مجرد إنسان حالم يعيش في خيال بلا واقع، لكنه كان عالما جسّد روح الإسلام في حب العلم والتجربة. طار بفكره وعقله، وإن لم يحلّق طويلًا بجسده.

مع العلم أن الناظر في حياة عباس بن فرناس يجد أنه لم يكن مجرد طيّارًا أو عالِمًا في فنٍّ من الفنون فقط، بل كان روحًا علميّةً محلّقة لا ترضى أن تُحبس في قفصِ تخصّصٍ في علمٍ واحد؛ فالعقلُ الذي فكّر في الطيران، هو نفسه الذي فكّر في الفلك والكواكب، وفي العدسات والأقلام، وفي شظايا الزجاج! لكنه كان عقلًا يركض في اتجاهاتٍ خمس كبيرة عامة، ويشعل الشغف في قلوب كل من عرفوه فقد كان:

- **فلكيًا:** كان فَلَكيًّا، يُصغي إلى حركة الكواكب كما يُصغي الشاعر إلى أنين الناي، لا ليروي قصيدة، بل ليصوغ علمًا. فصنع آلةً تُحاكي دوران الكواكب والنجوم، تُعرف اليوم باسم "القبة السماوية"، وتُعدّ من أقدم النماذج التي

(١) نفح الطيب، المقري، (٧٦/١)، وفيات الأعيان، ابن خلكان، (١٥٣/٣).

تحاكي الفضاء في العالم الإسلامي، وقد أشار إلى ذلك القَلاعي في كتابه أخبار الحكماء، واعتبره "أول من اخترع آلةً تُظهر حركة الأفلاك، إذ صمّم عباس بن فرناس آلةً لرصد حركة الكواكب في السماء، تُظهر مواقعها وتغيّرها بدقّة، تشبه آلة "الاسطرلاب" لكنها من تطويره وإبداعه، ما يدل على براعته في الفلك والرياضيات. كانت تلك الآلة واحدة من معالم نقلة علمية في رصد السماء، سابقةً لعصرها بأجيال" هذه القُبَّةً السماويّة كانت تُظهر النجوم وحركتها، وتُحاكي المشهد الليلي بتقنية مدهشة لكل علماء عصره، فهي لم تكن للعرض فقط، بل لأغراض تعليمية، لتقريب مشهد الكون لمن لا يستطيع مشاهدته مباشرة [1].

- **كيميائيًا:** فقد اشتغل عباس بن فرناس وأجرى تجارب على انكسار الضوء، وساهم في تطوير العدسات الطبية الأولى، حيث كان من أوائل من تعامل مع الخصائص البصرية للزجاج، وطبّقها في تحسين الرؤية، وهي أساس لاحق لصناعة النظارات الطبية وكان كيميائيًّا، يجري تجارب بالنار والمعدن والزجاج، ليحيل المادة إلى نور. فقد أبدع في تطوير الزجاج والكريستال الصخري، وابتكر طرقًا لصقله وتلوينه، حتى وُصف بأنه أول من صنع الزجاج الشفاف من الحجارة، وهي تقنية سبقت أوروبا بقرون، وقد نقل ذلك ابن جلجل في طبقات الأطباء والحكماء وعلّق عليه المستشرق الألماني زيغريد هونكه بقوله: "كان عباس بن فرناس مثالًا للعقل العلميّ المسلم الذي يرى في كل مادةٍ سرًّا ينتظر من يكتشفه"[2].

(١) أخبار الحكماء، القَلاعي، (١٨١).

(٢) ابن جلجل، طبقات الأطباء، (٤٣)، هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، (٢١٢)، ترجمة فاروق بيضون.

• كان ابن فرناس مهندسًا: حيث طوّر وأدخل تحسينات بارزة على صناعة الزجاج والكريستال الصخري، واستطاع أن ينتج زجاجًا شفافًا نقيًّا، وكان لهذه الصناعة شأنٌ كبير في الأندلس، وانتَقَلَت فيما بعد إلى أوروبا، ما جعل الغرب يذكره بأنه أول من مَهَّد لصناعة الكريستال العلمي.

• كما كان فيلسوفًا: لا يكتفي بالنظر إلى الظواهر الطبيعية، بل يغوص إلى جوهرها. تبحّر في المنطق والفلسفة، واطّلع على كتب أرسطو وبطليموس، وترجم بعضها إلى العربية بمعاونة مترجمين في بلاط قرطبة[١].

• كما كان مخترعاً: ومخترعًا، وموسوعيًّا، يعيش في مدينةٍ كانت آنذاك مناراتٍ للعلم والحضارة، وكان هو أحد مصابيحها. لم تكن مواهبه مجرد اهتمامات جانبية، بل كانت ثمارًا لعقلٍ يرى أن الإيمان لا ينفصل عن الإتقان، وأن "المسلم الحقّ" هو الذي يُتقن في صلاته، كما يُتقن في زجاجه، وعدساته، وموسيقاه.

• كان فنانًا: حيث ألّف في الموسيقى، وابتكر وأدخَل تحسينات على آلات العزف المعروفة مثل العود إذ كان عباس بن فرناس محبًّا للفن، وشارك في الحياة الثقافية في بلاط أمير الأندلس آنذاك الحَكَم بن هشام، وعبد الرحمن الأوسط. فلم تكن الموسيقى وقتها تسليةً له، بل مظهرًا من مظاهر انسجام العقل مع الجمال، وبهذا لم يكن عباس بن فرناس مهرجًا، بل حكيمًا، مستشارًا، ومُلهمًا في بلاط الحكم بن هشام وعبد الرحمن الأوسط، وقد ذكره المقري في نفح الطيب، ضمن أعلام قرطبة الذين جمعوا بين العلم والفن[٢].

(١) الأعلام، الزركلي، (٢٥٧/٤)، نفح الطيب، المقري، (١٥٩/١).
(٢) تاريخ الأندلس، د. حسين مؤنس، (١٥٥)، نفح الطيب، المقري، (١١٣/١).

أهمّ أعماله وإنجازاته العلمية التي استفادت منها البشرية:

الطيران: محاولة من عَالِمٌ لا يَعرِفُ الحُدُود.

في حياة بعض العظماء، لا تكفيهم مهنة واحدة، ولا يكتفون بحقل علميٍّ محدود، بل يتخطّون جدران التخصصات. وكان عباس بن فرناس من هؤلاء العلماء الكبار الذين لم يكتفوا بأن يتركوا لهم بصمة وأثرًا في فنٍّ واحدٍ بل أراد بعلو همَّته التي عانقت السماء أن يترك أثره الذي استفادت من البشرية جمعاء.. ألا وهو فكرة الطيران، وها نحن نصل إلى المشهد الأهمّ في سيرة ابن فرناس: تجربته الجريئة في الطيران. لقد كانت لحظةً تتجسّد فيها أحلام البشرية، وتمتزج فيها عبقرية الإنسان بجرأته، ويعلو فيها صوت الطموح على نداء الخوف.

فعباس بن فرناس لم يكن فقط سابقًا لعصره، بل سابقًا لأعراف وعادات عصره، ومتمرّدًا على الجمود. لم يقل: "أنا فقيه فلا أدرس الهندسة"، أو "أنا شاعر فلا أعبث بالكريستال"، بل قال بلسان حاله وواقعه وأعماله "أنا مسلم... ومن حقي أن أعرف، وأبدع، وأحلم، وأن أكون كلَّ ذلك في آنٍ واحد!"

لحظة التحليق: الطموح يسبق الجاذبية

بلغ عباس بن فرناس نحو السبعين من عمره، وقد نضج علمه، واستوت تجربته، وامتلأ قلبه بحبّ الاكتشاف. لكنّه لم يكتفِ بما أنجز، بل بقيت فكرة الطيران ترفرف في مخيلته، كما ترفرف الطيور في سماء قرطبة. ظلّ يراقب حركاتها، ويتأمّل في أجنحتها، ويقيس قوة الرياح، ويحسب بدقة قوانين التوازن والانسياب، حتى صمّم جناحين عظيمين، غطّاهما بريش النسور، وكساهما بالحرير، وجهّزهما بهيكلٍ خفيف يحمله جسده.

وفي يومٍ مشهود من سنة ٢٦٠هـ تقريبًا، صعد إلى مكانٍ عالٍ، على مقربة من قصر الزهراء، في مدينة قرطبة، احتشد الناس من كل حدبٍ وصوب، مزيج من العلماء، والأمراء، والعامة، وكلّهم يحدّقون في هذه المعجزة التي لم يُشهد لها مثيل. وقف الشيخ العالِم، وألقى نظرة أخيرة نحو السماء، ثم ألقى بنفسه من الأعلى... فـانطلقت جناحاه في الهواء، وبدأ يحلّق!

لقد طار فعلًا. طار لبضع دقائق، وسط ذهول الجميع، وكانت السماء تحتضنه كما تحتضن الأمُّ وليدها لأول مرّة. ارتفعت الهتافات، وتعلّقت الأنفاس، وغمرت النشوة قلوب الحاضرين. لقد تحدّى الجاذبية، واخترق سقف المستحيل، ولو لوهلة قصيرة. لكن، لم يكتمل التحليق. فعند الهبوط، سقط، وارتطم بالأرض، وتعرّض لإصابات مؤلمة. حين أفاق، قال كلمته المشهورة: "نسيتُ الذيل!" نعم، لقد نسي تصميم الذيل الذي يساعد الطائر على الاتزان عند الهبوط، فكانت تلك الثغرة كافية لإنهاء مغامرته بطَريقة أليمة موجعة.

وردت هذه المحاولة من عباس بن فرناس للطيران في عدد من المصادر التاريخية، منها:

- ابن حزم الأندلسي، في كتابه طوق الحمامة، ذكره باقتضاب واعتبره من نوادر زمانه.
- القَلاعي في عيون التواريخ قال: "وكان أولَ من طار بجناحين من الناس، وهو فيلسوف الأندلس".
- المقري في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، روى قصة تجربته للطيران بشيء من التفصيل، وأشار إلى إعجاب الناس به وجرأته.
- الزركلي في الأعلام قال عنه: "أول من حاول الطيران وصنع جناحين

وطار بهما، وسقط فأُصيب في ظهره".

- ابن خلدون أشار في المقدّمة إلى أنه من العلماء الذين اجتمع لديهم النظر العقلي والعمل التجريبي، دون ذكر اسمه مباشرة[1].

تجربة الطيران.. تُعَلِّم العالم!!

حين تجتمع العقول في بلاط الأمراء وتتنافس النجوم في سماء الأندلس، وقف شيخٌ جاوز السبعين من عمره، بثياب خفيفة، وعلى كتفيه جناحان من حرير وريش نسور، ونظرةٌ لا تخلو من العزيمة والتحدي. ذلك الشيخ لم يكن إلا عبّاس بن فرناس، العالم الأندلسي المسلم المعتز بدينه الذي قرأ السماء بعين الفلكي، ورسمها بخيال الشاعر، ثم همّ أن يلامسها بجناحيه كطائرٍ طال به الحنين إلى الأفق.

لم يكن الطيران في نظره مجرّد مغامرة، بل كان وعدًا داخليًا قطعه على نفسه أن يدفع بالعقل المسلم إلى أقصى حدوده. فقفز من مكان عالٍ في قرطبة، أمام جمهور مندهش وعيونٍ تُراقب، ارتفعت صيحات الناس، وهو يحلّق بالفعل لبضع دقائق، تخطّى فيها حدود الأرض، وسافر في الحلم والخيال، حتى اختل توازنه وسقط مصابًا. لكن ما قاله بعد تلك السقطة، يُظهر عظمة هذه الشخصية وروح الباحث الذي لا يندم على الخطأ بل يتعلّم منه. فقد قال – كما ينقل المؤرخون – إنه نسي أن يصمّم ذيلًا يُساعد على التوازن عند الهبوط، وكأنّه يُملي على من بعده الدرس الأول في ديناميكا الطيران. لقد كانت تلك اللحظة مشهدًا فاصلًا بين الأسطورة والواقع، لحظةً قال فيها ابن فرناس: "سأُحلق ولو مرةً واحدة، لأثبت للعالم أن المستحيل كلمة لم تُجرَّب

(١) الأعلام، للزركلي، (٢٠٦/٣).

بعد" وبقي محلقًا في الهواء لبضع دقائق ثم سقط، مما أدى إلى إصابته، وعلّق قائلًا "إنه نسي تصميم الذيل" الذي يساعد في التوازن عند الهبوط، ومع أن المحاولة الفريدة لم يُكتب لها النجاح الكامل، لكنّها كُتبت في سجلات التاريخ على أنّها أول محاولة علمية موثّقة في التاريخ للطيران، مما دفع بعض المؤرخين إلى أنه "أول رائد طيران في التاريخ".

إنّ عبّاس بن فرناس وإن لم ينجُ في تجربته الأولى للطيران بجسده، فقد ارتفع بفكره وروحه، وأعطى العالم أعظم دروس الطيران: أن لا شيء يعلو فوق الإرادة والعلم، وأنّ كل سقطة ما دامت في سبيل الحقيقة فهي نصرٌ يستحق أن يُروى، إذ ليست المسألة مجرد سقوط رجل من السماء، بل هي سقوط جسدٍ ارتفع به حلم أمّة في لحظة واحدة، رأى الناس أن المستحيل ليس دائمًا مستحيلاً، رأوا أن من قلب قرطبة يمكن أن يولد "دا فنشي"، و"رايت"، و"إديسون" وغيرهم، وأن الإسلام لم يكن دين عبادة فحسب، بل دين علمٍ وتجريبٍ وسبقٍ لكل الأمم، وبهذا أشبه سقوطه بسقوط بذرة في الأرض بدأت به بداية حياة جديدة لقد "سقط عباس"، لكن الفكرة حلّقت، ووراءها جاءت قرون من الابتكار.

ورحَلَ البطل وترك إرثٌ تجاوز حدود الزمان والمكان.

بعد رحلة تعلّمت منها البشرية جمعاء توفي عباس بن فرناس سنة ٢٧٤ هـ في مدينة قرطبة، عن عمر ناهز ٧٨ عامًا. لكنه ترك خلفه إرثًا علميًا مهمًا، وألهم العلماء والمخترعين من بعده، في الأندلس وفي أوروبا.

لذا حين تُذكر الأندلس لا يُمكن أن تُذكر دون أن يتوهّج في الذاكرة اسم عباس بن فرناس، ذاك العالم الذي لم يكتفِ بأن يُحلّق في السماء بأجنحته، بل ظلّت أفكاره تحلّق في عقول المفكرين والعلماء من بعده، حتى بعد قرون من رحيله.، ولقد أحدثت تجربة ابن فرناس في الطيران وما سبقها من إنجازات في

الفلك والبصريات، شرارةً أولى في عقول الأوروبيين الذين تلقّوا تراث الأندلس بشغفٍ حين وصل إليهم عبر الترجمة، وبهذا لم يكن ابن فرناس مجرد عالم في حضارة الأندلس، بل كان جسراً معرفياً عبر منه كثير من العلماء الغربيين إلى عصور النهضة.

ففي القرون التالية لترجمة مؤلفات العلماء المسلمين، كانت أوروبا تعيد اكتشاف عباس بن فرناس، ليس بوصفه مجرد شخصية غريبة حاول الطيران، بل كرمزٍ لعقلٍ استباقي آمَنَ بأن الخيال العلمي يمكن أن يصبح واقعًا، حتى أشار مؤرخو العلوم بعده إلى أن محاولته الموثقة في الطيران كانت ملهمة للعلماء بعده رغم فشلها الجزئي، تمامًا كما تُلهم تجارب نيوتن وأديسون بخطواتها الأولى الشاقة. نعم ألْهمَت تجربة عباس بن فرناس الأندلس كلها ومن بعدها العالم كله، وأثّرت في الوعي العلمي للأوروبيين وغيرهم لاحقًا، حتى ذُكر اسمه ضمن قائمة المُلهمين للطيران في كتب الغرب والشرق، ويُقال إن ليوناردو دا فنشي اطّلع على بعض تراث الأندلس العلمي، وأن تأثير المسلمين كان واضحًا في تصميماته الهوائية.

لم يقف التأثير عند الحدّ النظري لهذا العالِم الفذّ الجريء لم يحلق فقط في الهواء، بل في عقول من جاؤوا بعده. فقد ذُكر اسمه في كتب أوروبا اللاتينية بعد قرون، وألهمت بعده أجيال كاملة من المخترعين. وكرّمته وكالة الفضاء الأمريكية ناسا بتسمية فوهة قمرية باسمه "Abbas Ibn Firnas Crater" في العام ١٩٧٦، وذلك اعترافًا بمكانته كمبتكرٍ سبّاقٍ إلى استكشاف أحلام الإنسان في الطيران. وفي قرطبة ذاتها، حيث خاض مغامرته الجريئة، أقيم "جسر عباس بن فرناس" تخليدًا لتلك اللحظة التي سقط فيها جسده، لكن ارتفعت فيها راية العقل الإسلامي الحرّ. كما أنشأت العراق مطارًا دوليًا باسمه، إقرارًا بدوره في التاريخ العلمي العربي والعالمي.

بل إن العديد من الموسوعات الغربية الحديثة، من بينها Encyclopedia of the History of Science وOxford Arabists, أدرجت اسمه في قوائم الروّاد في تاريخ الطيران والمخترعين المسلمين، مؤكدة أن إرثه تخطّى ثقافةً بعينها ليصبح جزءًا من تاريخ الإنسانية جمعاء[1].

الخاتمة والدروس المستفادة:

بدايةً يا من تُربّي الأجيال... علّم أبناءك أن لا يقفوا عند أبواب التخصصات، بل يجب عليهم أن يوسّعوا آفاقهم، وأن يجمعوا بين القرآن والسُّنة وغيرها من علوم الفلك والطب والحساب، بين الخوارزمي وأبو حنيفة ومالك، بين العبادة والإبداع، فالعالِم الكامل لا يُرضيه علمٌ واحد، بل يسعى ليكون أمةً وحده.

قصة عباس بن فرناس هي قصة إنسان طمح إلى كسر حدود المستحيل. لم يكن مجرد حالمًا أو خياليًّا، بل عالِم جسّد روح الإسلام في حب العلم والتجريب. طار بفكره، وإن لم يحلّق طويلًا بجسده. وخلّد التاريخ اسمه بين الرواد والمخترعين، ليبقى مصدر إلهام لكل من آمن بأن المستحيل هو فقط ما لم يُجرَّب بعد.

١- مما يستفاد من سيرة ابن فرناس أن الخيال ليس ترفًا.. بل بداية كل علم. كان عباس يحدّق في السماء، ويراقب الطيور، لا ليكتب قصيدة أو يتأمل جمالًا، بل ليسأل لماذا لا نُحلّق نحن؟ لقد فهم أن الخيال العلمي ليس تهرّبًا من الواقع، بل استباقٌ له. هذا ما نحتاج أن نُعلّمه لأبنائنا: أن يحلموا وأن

(١) الأعلام، للزركلي، (٢٩١/٣)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، (٢٥٨/١ ٢٥٩). عباقرة الإسلام في العلوم، رشيد بن عيسى، (١١٢). أحمد فؤاد باشا، العلوم الكونية في الحضارة العربية الإسلامية، (٢٠٩-٢١١).

يحوّلوا الحلم إلى تجربة واقعية، وما أجمل الخيال إذا حمله عقلٌ لا يخاف التجريب" مقولة مستوحاة من منهجه.

٢- التجربة والخطأ ليست فشلًا.. بل وقود المعرفة. فحين سقط ابن فرناس، لم يقل "فشلت"، بل قال"نسيت الذيل" يا لها من عبارة! تُلخّص روح العالِم الحقيقي الذي يُدرك أن الخطأ خطوة في سلّم الحقيقة كم نحتاج أن نزرع في طلابنا هذه الروح: أن لا يخافوا من المحاولة، وأن يعتبروا السقوط بداية نهوض.

٣- طلب العلم مسؤولية حضارية. كان عباس بل باحثًا موسوعيًّا في الفلك والكيمياء والهندسة والبصريات، هذا النَّفَس الطويل في طلب العلم علّمنا أن المعرفة ليست للترف، بل للنهوض بالأمة، فليكن طلابنا خلفاؤه في روح التعلّم الجاد الشامل.

٤- البيئة الحاضنة تصنع العظماء. عاش عباس في الأندلس، حيث الجامعات، والمساجد، والبلاط الذي يكرّم العلماء. فازدهرت طاقاته، ولم يُحارب خياله. وهنا درس لكل مجتمع ومؤسسة: إن أردتم عباقرة، فازرعوا بيئة تُحب العقل وتُكرم المخاطرة.

٥- العبقرية لا تموت... بل تُؤجّل أحيانًا. سقط عباس، ولم يطِر بعده أحد من المسلمين. لكن الغرب التقط الفكرة، واستثمرها، ووصل إلى الفضاء. لم تكن المشكلة في الفكرة، بل في من يحملها بعد صاحبها. فهل نحن اليوم على قدر هذا الإرث؟ وهل نبني مدارس تُنجب من يُكمل ما بدأه ابن فرناس؟

الأسئلة:

١. مَن هو عباس بن فرناس؟ وفي أي عصر عاش عباس بن فرناس؟

٢. ما أهم أعمال عباس بن فرناس غير الطيران؟ وفي عهد أي حاكم كان؟

٣. ما الدولة أو المنطقة التي وُلد فيها عباس بن فرناس؟

٤. ما أبرز اختراع أو تجربة ارتبطت باسم عباس بن فرناس؟

٥. ما الهدف من تجربة الطيران التي قام بها عباس بن فرناس؟

٦. ما المواد التي استخدمها عباس بن فرناس في صنع جناحيه؟

٧. ما النتيجة التي انتهت إليها تجربة الطيران التي قام بها؟

٨. ما الدرس الذي استخلصه عباس بن فرناس من تجربته الفاشلة جزئيًا؟

٩. ما أهم المجالات العلمية الأخرى التي برع فيها عباس بن فرناس غير الطيران؟

١٠. كيف ينظر العلماء والمؤرخون اليوم إلى تجربة عباس بن فرناس؟

***

٨- عبدُ الله بنُ يَاسين.. رجلٌ بأُمّة

في رُبوعِ الصحراءِ المغربية، وبين قومٍ تغلب عليهم الفطرة والبأس، وتفتقر أرواحهم إلى نور الشريعة، ولد الحُلم الذي سيُؤسِس دولة من أعظم دول الإسلام في بلاد المغرب الأقصى، لا في قصرٍ منيف، ولا في مجلسِ وثير، بل في خيمة عالمٍ صادق وداعية إلى الله اسمه: عبد الله بن ياسين.

كان الناسُ حوله على الإسلام اسميًّا، ولكنهم غارقون في الجهل، والمجتمع منقسم بين قبائل متصارعة، وعقائد شاذّة، ومظاهر شركية متفشية. في هذا الجوّ الحالك، أرسل الله هذا الفقيه المالكي، الذي تعلم على يد الإمام القاضي أبي عمران الفاسي، فكان لسانه سيفًا من علم، وقلبه موصولًا بالسماء.

فقد ولد عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير علي الجزولي الصنهاجي. وأمه تدعى تين يزامارن من أهل جزولة في قرية تياماناوت التي تقع في منطقة سوس بالمغرب، ويرجع نسب عائلته إلى قبيلة جزولة الضاربة في أقصى المغرب قرب جبال درن، ويرجح بعض الباحثين نسبه إلى قبيلة جدالة الأمازيغية التي استوطنت موريتانيا في المناطق القريبة من السنغال وتوغلت جنوبا حتى النيجر، وقد حرّف الرواة اسم الجدالي إلى الجذالي أو الجزولي.

ولم تذكر كتب التاريخ شيئا كثيرًا عن طفولته وتاريخ ولادته أو نشأته، والراجح أن مولده كان في مطلع القرن الخامس الهجري. وكان للبيئة الصحراوية كان لها دور كبير في معرفته تقاليد قومه وطبائعهم ولغتهم، وقال المؤرخون إن ابن ياسين لم يكن فقيها فحسب، وإنما كان عالما محدثا ومفسرا، إذ فسر القرآن لأصحابه وروى الحديث، وقد برع في الفقه والحديث والتفسير وفي السياسة والجهاد وقيادة الجيوش والشعوب.

الضَّوْءُ فِي قَلْبِ الظَّلام.. النور يبزغ من فاس.

كما مرّ بنا ففي أقصى الجنوب الغربي من بلاد المغرب، وفي زمانٍ كانت فيه الصحراء أكثر عِزلةً من الجبال، ولد عبد الله بن ياسين، ذاك الرجل الذي حمل المصحف عملًا به فأسّس دولة، وحمل العلم تعليمًا له فأقام أمة.

وُلد في أوائل القرن الخامس الهجري (حوالي سنة ٣٩٠ هـ)، في قبيلة جزولة، وهي من قبائل المصامدة البربرية، في بيئة يغلب عليها البساطة ويعمّها الجهل، وكانت المجتمعات في تلك الفترة تعرف الإسلام اسميًّا فقط، لكنّها غارقة في مظاهر الوثنية والبدع والانحرافات العقائدية، خاصة عند قبائل صنهاجة الكبرى، التي كانت تسيطر على مساحات شاسعة من الصحراء.

نشأ عبد الله بن ياسين في بيئة دينية حُبِّب إليه فيها طلب العلم، فرحل إلى فاس، العاصمة العلمية آنذاك، حيث تلقى العلم على يد القاضي أبي عمران الفاسي، أحد أبرز علماء المغرب في زمانه. وقد أثّر فيه أستاذه تأثيرًا بالغًا، وكان أبو عمران يشتكي دومًا من الانحرافات الدينية التي تعمّ قبائل الجنوب، ويتمنّى لو أنّ في الناس من يصلح أحوالهم، فما كان من تلميذه عبد الله بن ياسين إلا أن قام بنفسه بحمل الهمّ، وقال: "لبيك يا إمام... أنا لها بإذن الله!". فرحل ابن ياسين برسالة العلم والإصلاح، ولم يكن في يده جيش ولا سلطان، بل إيمانٌ عميق بأن إصلاح عقيدة الأفراد يسبق قيام الدول، وأن نهضة الأمة تبدأ من تصحيح الإيمان في قلوب الأفراد، وبهذا "أدرك ابن ياسين أن الدعوة تبدأ من التعليم والتربية الصحيحة مع السلطة، ومن الموعظة وتزكية النفس والتدريب على السلاح." [١]

(١) دولة المرابطين، د. علي محمد الصلابي، (١٥).

لقاء لمتونة: الشرارة الأولى للمرابطين.

حين وصل ابن ياسين إلى الجنوب، استقبله يحيى بن إبراهيم الجدالي أمير قبيلة لمتونة، وكان الرجل قد حج ورأى الإسلام الحقيقي في الحجاز مما أحزنه على قومه من بُعدهم عن دين الإسلام، فطلب من أبي عمران الفاسي مَن يُعلّم قومه الدين الحق فإن قومه لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ومن المصحف إلا رسمه فكان أن أرسله إليه، فبدأ عبد الله بن ياسين دعوته بالتعليم، فأنشأ "الرباط"، وهو مدرسة دينية تَربوية وسط الصحراء، وكان فيه طلبة يُؤخذون بالتدرُّج من الجهل إلى العلم والعمل، ومن العصبية الضيقة للقبيلة إلى الأخوة الواسعة في الإسلام، ومن العبادة الفردية الخاصة إلى المشروع الجماعي العام الذي يخدم الدين والوطن، لذا قالوا عن عبد الله بن ياسين "إنه كان شديدًا في الحق، لا يُجامل، ولا يُراعي الأعراف الجاهلية، ولذلك واجه في البداية مقاومةً شديدة من أهل قبيلة لمتونة، بل أُجبر على مغادرة القبيلة، ثم عاد بعد ذلك بقوة الإيمان، مع قوة السيف" ولعلّ الله علم صدق نيته فأيّده برجل آخر هو الرجل القويّ دينيًا وعسكريًا يحيى بن عمر اللمتوني، الذي تولّى الجوانب القبلية والعسكرية، بينما بقي ابن ياسين مشرفًا على التربية الدينية[1].

من هذا الرباط نشأ لقب "المرابطين"، أي الذين يرابطون في سبيل الله علمًا وعملاً، رباطًا في الأرض ورباطًا في القلوب، ورِباطاً على تعليم الإسلام وتربية الناس عليه، وتعبيد المجتمع لربه على الحقيقة، ومن مدرسة الصحراء خرجت نواة دولةٍ ستكون إحدى أعظم دول الإسلام في المغرب. قال عنه ابن خلدون "كان عبد الله بن ياسين من كبار الدعاة والمصلحين، حمل علم السلف

(١) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، (٨٨/٢)..

وربّى عليه أمةً عظيمة، كانت شوكةً في وجه الباطل"[1].

عبد الله بن ياسين فقيه وحّد الصحراء تحت راية الإسلام.

تأثر الأمير الصحراوي يحيى بن إبراهيم الجُدالي بالرحلة إلى الحج، وهناك التقى بعلماء القيروان وتأثر بهم، فلما رجع إلى قومه رأى الانحراف العقدي والسلوكي، وقرر أن يُصلح ما استطاع. فطلب من علماء القيروان أن يبعثوا معه عالمًا فقيهًا، فاختاروا له عبد الله بن ياسين، الرجل الذي صدّق علمه عمله، بقي ابن ياسين يقود المشروع الدعوي العسكري من سنة ٤٣٠ هـ حتى سنة ٤٥١ هـ وفي تلك السنوات، كانت البذرة تكبر، وكان الرباط يتحوّل إلى جيش، والجيش يتحوّل إلى دولة، حتى أصبحت "دولة المرابطين" حقيقةً قائمة، بعاصمتها الجديدة "أرغان"، وبجهازٍ إداريٍّ وعسكريٍّ منضبط، وبمنهجٍ تربويٍّ صارم، كما كانت الدولة الجديدة لا تشبه غيرها، لأنها لم تقم على العصبية، بل على المنهاج النبوي، ولم تنهض على حب الدنيا، بل على الإخلاص لله.

وفي هذا الزمان الذي تخلخل فيه البناء الديني والاجتماعي في ربوع بلاد المغرب الأقصى، وعمّ فيه الجهل والفقر المُدقع والتفرق والبُعد الشديد عن معالم الإسلام، بعث اللهُ عبدَ الله بن ياسين ليكون شعلة نورٍ في صحراءٍ غارقةٍ في ظلمات الوثنية والتقاليد الجاهلية، فلم يكن ابن ياسين أميرًا ولا قائدًا عسكريًا، بل كان عالمًا ربّانيًا، خرج من مدرسة الفقه المالكي، وامتلأ قلبه بالإيمان بأنه لابد من إصلاح هذا المجتمع بالإسلام، فحمل همّ الدعوة إلى الله وركب الأخطار، وسار بعيدًا عن مظاهر الشهرة والسلطة.

لم يحمل ابن ياسين سيفًا فقط ليحمل الناس على الإسلام بالقوّة، بل حمل مصحفًا وعقلاً ناضجًا محبًّا لدينه ودعوته، كما سعى معه بعض طلابه ممن

(١) مقدمة ابن خلدون، (٣٤١).

تأثَّروا بدعوته إلى بناء أول نواة ربانية بين قبيلة لمتونة، فأنشأ "الرباط التربوي الدعوي"، الذي سمّي به أصحابه بـ"المرابطين"، ولم يكن في البداية رباطًا للقتال، بل رباطًا للعلم والعبادة والتهذيب هناك حتى تستوي عقول وقلوب وإيمان الرجال، كان الفقه يُدرّس جنبًا إلى جنب مع الزهد، وكان الحديث يتقاطع مع آيات الجهاد والتربية والتزكية.

كان ابن ياسين يؤمن أن تغيير الأمة يبدأ بإصلاح النفوس، فربّى رجالًا صاروا فيما بعد فُرسانَ دولة، وكان لا يرضى أن ينطلق مرابطٌ للجهاد حتى يزكّي نفسه ويتأدب بآداب الإسلام، فيشبّههم بالنحل: "لا يخرج من الخلية إلا بعد أن يمتلئ شهدًا" وفي صحراءٍ منسية بين كثبان الرمال، حيث يهمس الليل بالأسرار لمحبّيه من قُوّامه، كانت دمعةٌ من صاحب الدعوة الحقّة تُبلل التراب الساجد عليه، لا لأن رجلًا يُغادر، بل لأن أمةً كاملة كانت تشهد وداع مُربّيها الأول.. فقد كان ابن ياسين يربط الليل بالنهار في جهادٍ غير جهاد المتقاعسين ولا المتخاذلين، يُربّي، ويُصلّي، ويغزو، ويُعلّم، ويُرابط، فلم يعرف القصور، ولم تَغْرِهِ فتنة المُلك، بل كانت خيمته هي المسجد، وزاده هو القرآن، ورفيقه هو الحلم الكبير وهو "أن تقوم للإسلام دولةٌ ويتجمع حولها المسلمون.

من الدعوة إلى الدولة.

لم تكن البداية سهلة، فقد قوبل عبد الله بن ياسين بالاستهزاء والرفض من بعض قبائل الصحراء، فقد اعتاد الناس حياة الفوضى والتقاليد المخالفة للشرع. فاستأذن من الأمير يحيى أن يختلي بمن أراد من الجادّين في جزيرة نائية في نهر السنغال، وهناك بدأ "التكوين التربوي العميق"، وفي هذه الخلوة التربوية، وضع ابن ياسين أُسُس دولة "المرابطين"، وهي جماعة ربانية منضبطة على القرآن والسنة، تبدأ تربيتها من الداخل، وتمتد بعد ذلك نحو المجتمع، فلقد أحسن ابن ياسين غرس المبادئ، ثم أطلق الثمار في الصحراء.

كان عبد الله بن ياسين يدرك أن النّصر لا يُولد من الغضب، بل من الصبر والتربية الإسلامية الصحيحة، والعمل الدؤوب للوصول إلى الهدف المرجوّ والجيل المنشود، وبعد أن توافدت القبائل على دعوته، وذاق حلاوة تأثيرها، شرع في مواجهة القبائل المنحرفة مثل برغواطة ومغراوة، وقاد بنفسه الجهاد ضدهم في معارك شرسة، كان آخرها ضد برغواطة التي تبنّت عقائد كفرية وادّعت النبوة، وفيها استشهد الإمام عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١هـ بعد أن مهد الطريق، ووضع اللبنة الأولى للدولة المرابطية، وهكذا لم يمت ابن ياسين على سريره، بل استشهد حاملًا راية التوحيد، مطعونًا في سبيل ما آمن به، ليكون دمه أول قطرة تُسقي بذور دولة المرابطين العظيمة.

شخصية عبد الله بن ياسين القيادية.

في زوايا التاريخ تختبئ شخصيات صنعت التغيير بهدوءٍ وعزم، جمعت بين البصيرة والقيادة، وكان عبد الله بن ياسين واحدًا من هؤلاء. لم يكن أميرًا بسلطان، ولا قائدًا بجيش، لكنه كان أعظم من ذلك: كان مُربّيًا قائدًا، وصانع أُمَّة، وهكذا حين تخترق السنابل الجافة أرضًا قاحلة، لا تفعل ذلك إلا بإصرارٍ لا يعرف اللين.. وهكذا كان عبد الله بن ياسين، يوم قرّر أن يدخل في أعماق قبائلٍ لم تعرف ربها ولا دينها الحقيقي، لذادخل بن ياسين إلى بلاد الصحراء الكبرى، حيث كانت قبائل صنهاجة في ظلمات الجهل والتقاليد الوثنية، وكان التحدي قاسيًا، ليس لأن القوم أغراب، بل لأنهم اعتادوا على حياة الجهل لا سلطان فيها إلا للعرف والسيف، ففي خيمة بسيطة في مكان اسمه "جزيرة جدالة"، اجتمع حوله من أراد الحق من المتعطّشين له، فكانوا حفنة قليلة من الرجال لكنهم سيتحوّلون قريبًا إلى جيشٍ يحمل النور والسيف معًا، ولأنه عالمٌ بصير لم يكن يميل إلى التهاون المفرِط ولا إلى العنف الشديد الغير مبرّر، فقد

كان وسطًا معتدِلًا، فمن رفض دعوته، نصحه أولًا، ثم هجره وتركه لله ربما يعود إلى الحق فيما بعد، لكنه كان ثابتًا لا يُراوغ، وواضحًا لا يُداهن، وهكذا بدأت تتشكل نواة دولة المرابطين، وكان ابن ياسين داعية من طرازٍ فريد، لا يُجامل، ولا يُساوم، ولا يرضى بأنصاف الحلول، يضحي بنفسه ولا يضحي بالمبدأ، لقد بدأ التحول الأعظم في غرب إفريقيا، وتلك القبائل التي لم تُدرِك معنى (الشهادة) أصبحت تهتف بها في كل وادٍ وجبل، فلم يكن عبد الله بن ياسين مجرّد رجل علمٍ وموعظة، كان يُبصِر ما لا يراه غيره فقد رأى أن الإصلاح الديني وحده لا يكفي، ما لم يُحمَ بالأمن، ويُدعَم بالقوة، ويُنظَّم بالمؤسسيّة[1].

عبد الله بن ياسين لم يُربّ أتباعًا، بل أخرج رجالًا، ولم يُبنِ مؤسسات، بل أقام قلوبًا، ولم يُؤسس حكمًا، بل أطلق فكرة مفادها "أن التربية وحدها هي التي تستطيع أن تُقيم دولةً يهابها الشرق والغرب، لأن تستمدّ جذورها من رب السماء، لا من تراب الأرض وعصبيّتها المقيته، فقد كان:

١- القائد الحقيقي الذي يبدأ من القلوب: حين دخل عبد الله بن ياسين إلى قبائل صنهاجة وغيرها في بلاد المغرب، لم يحمل سيفًا ولا راية، بل حمل كتاب الله وسُنّة نبيه ﷺ، وجاءهم بدعوة إصلاح لا بسطوة سلطة، حيث كان يدرك أن بناء الدول لا يبدأ من القصور فقط بل من النفوس بتزكيتها وتعبيدها لربها، فركّز أولًا على التربية والتزكية، وكان يهمس للقلوب قبل أن يخاطب العقول ولذا قيل: "من أراد التمكين في غيره، فليبدأ بالتمكين في نفسه"، وبهذا التمكين من النفس عند عبد الله بن ياسين صار نموذجًا للقائد المُلْهِم الذي يُغيّر من نفسه أولًا، وهذاما تحتاجه المجتمعات في لحظات

(١) قصة الأندلس، د. راغب السرجاني، (92-88)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، (٣٢١/١).

ضعفها، "وقد كان عبد الله بن ياسين يتمتع بكاريزما قيادية مميزة، تمكّن بها من أن يضبط قبائل كثيرة متفرقة الطبع، وأن يجعلهم يذوبون في مشروع واحد"[(١)].

٢- حزم بلا قسوة، ورحمة بلا تهاون: أدهش عبد الله بن ياسين معاصريه بميزان دقيق جمع فيه بين الشدة على الباطل، واللين مع النفوس، فكان إذا وجد انحرافًا واجهه، وإذا رأى ضعفًا احتضنه. وبهذا اكتسب قلوب الناس لا خوفًا، بل حبًّا واحترامًا، فهناك حادثة اشتهرت عنه مع بعض طلابه وقُوَّاده، حيث عُرف أنه نفى أحد قادة المرابطين عندما خالف المنهج الأخلاقي الذي أسّسه، رغم تأثير هذا القائد ونفوذه، لكنه عاد وقَبِل توبته لما رجع للحق، وبهذا تتجلى عبقرية القيادة التربوية: لا تقتُل الناس بالخطأ، بل تُصحّح الناس ليتخلّصوا من الخطأ، فقد استطاع عبد الله بن ياسين، بهذا العمل المبارك: أن يوحّد قبائل صنهاجة المتفرقة، وأن ينشر الإسلام في أعماق الصحراء، وأن يُقيم قواعد دولة مرابطية ستبلغ الأندلس لاحقًا وصحراء أفريقيا جنوبًا وشرقًا، لقد جمع بين: فكر الصِّدّيق في الإصلاح الشامل، وشجاعة خالد بن الوليد في الميدان، وزهد الحسن البصري في السلوك، ولذلك لم يكن غريبًا أن تُفتح على يديه مدن وقبائل وأقاليم لم يطأها الإسلام من قبل. [(٢)].

٣- التنظيم والانضباط: سرّ نهوض الأمم: كانت "الرباطات" التي أسّسها أشبه بـ"المدارس العسكرية النبوية، والتي يتَرَبَّى فيها يتربّى المجاهد على العلم والإيمان والجهاد والنظام. وضع فيها نظامًا صارمًا منضبطًا: - ساعات للتعلّم - وساعات للتأمل - وساعات للتدريب - وساعات للخلوة والمحاسبة، فبدأ

(١) قصة الأندلس، د. راغب السرجاني، (١٩٦).

(٢) الأعلام، الزركلي، (٦١/٤)، الكامل، ابن الأثير، (٨/ ١٨-٢٠)، البيان المُغرِب، ابن عذاري، (٦٧/٢).

بتنظيم جماعة "المرابطين" على قواعد صارمة: فلا يُقبل في صفوفهم إلا من فهم العقيدة حق الفهم وعمل بما علِم، ولا يُؤذَن بالجهاد إلا لمن أتقن الطهارة والصلاة والعبادة، وكان يُخصّص وقت للدراسة ووقت للتدريب ووقت للتعبّد وقراءة القرآن، قال المقري في نفح الطيب: "فكانوا ربانيين في نهارهم، رهبانًا في ليلهم، سيوفًا مشرعةً على الباطل، وألسنةً رقيقة على الخلق"[1]. ولهذا لم تكن القيادة عند ابن ياسين شعارًا، بل منهاجًا حيويًّا متكاملاً، يُصاغ فيه الإنسان قبل أن يُسلَّح، وتُبنى فيه النفوس قبل أن تُبنى القلاع.

٤- تأثيره بعيد المدى قيادة تصنع قادة: استُشهِد القائد الأول وإمام الدعوة عبد الله بن ياسين، لكن لم تسقط الدعوة بسقوطه مؤسها، بل انتقل اللواء مباشرة إلى تلميذه القائد الكبير يحيى بن عمر اللمتوني، ثم من بعده إلى أبي بكر بن عمر، ومن بعده يوسف بن تاشفين الذي أسّس الدولة المرابطية الكبرى. ما يدل على عظمة قيادة عبد الله بن ياسين الذي لم يُخرّج أتباعًا لا يعرفون غير اتّباع الأوامر وفقط، بل خرّج قادة عظماء فاتحين على طريقة قيادات الإسلام الأولى من أمثال:

- يحيى بن عمر اللمتوني: أول قائد عسكري للمرابطين.
- أبو بكر بن عمر: فاتح بعض بلاد الجنوب الإفريقي.
- يوسف بن تاشفين: أعظم ملوك المسلمين في المغرب والأندلس.

لقد رسّخ فيهم أن القيادة ليست في المظهر، بل في الاستقامة، وضبط النفس، وحسن المعاملة، والتواضع، والثبات على المبادئ، فعلى الرغم من أنه استُشهِد سنة ٤٥١هـ في معركة قرب نهر السنغال، وكان يمكن لهذا الحدث أن

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، (٣٢٢/١).

يهزّ الكيان الناشئ للمرابطين، لكن ما حدث هو العكس، لقد زادهم ذلك ثباتًا، وكان وقع موت الشيخ كإشارة للعبور إلى مرحلة جديدة: مرحلة الانتشار والتمكين للدولة الناشئة.

قال عنه ابن خلدون: "وكان عبد الله بن ياسين... إمامًا في العلم، عابدًا زاهدًا، شديدًا على نفسه، مُصلحًا للناس بلسانه وسيرته" [١].

٥- بصمة القيادي تكون في تاريخ أمة: من تأمل سيرة المرابطين بعد عبد الله بن ياسين، سيجد أن مشروعهم العسكري كان محاطًا بروح إيمانية لم تكن لتتحقق لولا التربية الصارمة التي بدأها بنفسه ومن حوله، فقد أسّس نواة دولة قامت على الرسالة، لا الغلبة، وحرّكتها القيم لا المصالح، ولذلك فإن كل نصر تحقّق لاحقًا من فتح مراكش، إلى توحيد المغرب، إلى حماية الأندلس هو امتداد لمدرسة هذا الإمام القائد المربّي.

ومضة تربوية للجيل الحديث:

في زمنٍ تزداد فيه الأصوات وتقلّ القدوات، نحن بحاجة إلى إعادة قراءة شخصية ابن ياسين، لا كمجرد فقيه أو مصلح، بل كقائد تربوي صانع أمة، وأن مَن أراد أن يزرع في نفسه مشروعًا يُبقيه بعد موته، فليبدأ كما بدأ عبد الله: "يربّي نفسه أولًا، ثم يحمل النور لغيره".

وُلِدت الدولة رغم رحيله.

لم يُدفن ابن ياسين في كتبٍ مطويّة، بل في ذاكرة أمة، فقد تولّى من بعده أبو بكر بن عمر، ومنه إلى يوسف بن تاشفين، الذي أقام أركان الدولة، وامتدّ

(١) المقدمة، فصل دولة المرابطين، ابن خلدون.

بها غربًا وشرقًا، لتصبح دولة المرابطين نموذجًا مهيبًا لحُكمٍ أُسِّس على دعوة إسلامية صحيحة ووضع أمامه سيرة الرسول ﷺ في تربية الصحابة، لَو كانَتِ الدَّعْوَةُ مُعَلَّقَةً بِالأَشْخَاصِ، لَمَاتَتْ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَسْقُطُ فِيهَا قَائِدُهَا[1].

إنّه مشهدٌ عجيب في التاريخ: عالمٌ فقيهٌ يؤسّس دولة، بلا جيش نظامي، ولا حزب سياسي، فقط بحسن التربية الصحيحة على الجهاد في سبيل الله، وبقوة الكلمة الصادقة، وصفاء النية، وإخلاص الغاية، ووضوح الرؤية، وبيان الهدف لنفسه وأتباعه، وسلامة الوسائل من الانحراف، وهكذا فعل عبد الله بن ياسين - رحمه الله -.

علّمنا ابن ياسين أن القادة يموتون، لكن مشاريعهم تبقى إن بُنِيَت على المؤسسات لا الأشخاص، وأن المؤمن الحقّ يُعدّ مَن بعده قبل أن يُفكّر في بقائه، وعلّمنا أن الدماء الطاهرة تصنع الأرضية الصلبة لبناء الدعوة وذلك بالربط بين التعليم والجهاد والعمل السياسي ضرورة في المجتمعات المتحولة من دعوة إلى دولة.

من الدروس التربوية الخالدة

- التغيير يبدأ من التربية الحقيقية لا من السياسة فقط بل منهما معًا: فقيه واحد ربّى عشرات الرجال، فانطلقت بهم دولة غيرت التاريخ.

- الشجاعة ليست في السيف بل في الصدع بالحق: فقد واجه ابن ياسين الانحرافات الفكرية في ثبات عجيب.

---

(١) دولة المرابطين، الصلابي، (٣٥-٤٨)، المرابطون: من التأسيس إلى التمكين، د. عبد الهادي التازي، (٥١-٥٨)، دولة الإسلام في الأندلس، عبد الله عنان، (٦٨/٢-٧٥)، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي، (١٤٠/١-١٤٥).

- منهج البناء التربوي يسبق الجهاد العسكري: حيث كان منهجه: "نحمل السلاح بالقرآن وعدل الإسلام"

- القيادة الصالحة تخرج من الحلقات العلمية: المرابطون لم يتخرّجوا من أكاديميات عسكرية، بل من مدارس الصدق والخشوع والتربية الإسلامية الصحيحة.

- الإصلاح يبدأ من الداخل: لم يبدأ ابن ياسين بالسيف، بل بدأ بتربية القلب والعقل، ثم الجهاد.

- التجرد لله: لم يسع للسلطة، بل سلّمها إلى الأكفأ (يوسف بن تاشفين)، وآثر لنفسه دور العالم المرشد.

- الصبر على الأذى: لم ييأس حين طُرد أو أُهين، بل ثبت، فآتت دعوته أُكلها.

- بناء المؤسسات التربوية: أسس مدرسة تربوية، ثم حركة دعوية، ثم دولة.

- توحيد الأمة على العقيدة السليمة: ما فعله ابن ياسين كان بمثابة تجميع فتات القبائل في كيان واحد، تحت راية الإسلام الصافي.

الصبر التربوي: تحمّل أذى المعارضين، وبدأ ببناء جيل من الزعماء فنقل المجتمع من الجهل إلى الوعي.

كان مشروعه ربانيًا شموليًا: لا يقتصر على العبادات بل يتعدى إلى بناء المجتمع، فمزج بين الفقه المالكي والانضباط العسكري والزهد السلوكي.

امتلك وعيًا سياسيًا مع فهم طبيعة المجتمعات ففهم القبائل البدوية التي

يتعامل معها، فتدرج دون تنازل عن الثوابت، كما لم يُغفل الحاجة للدولة كحامية للمبدأ.

الأسئلة:

١. من هو عبد الله بن ياسين؟ وما نسبه؟ وفي أي بيئة نشأ؟

٢. ما سبب قدوم عبد الله بن ياسين إلى بلاد المغرب؟ ومن الذي أرسله إلى قبيلة جدالة؟ ولماذا؟

٣. ما موقف الناس من دعوة عبد الله بن ياسين في بدايتها؟

٤. كيف تعامل عبد الله بن ياسين مع رفض الناس لدعوته في البداية؟

٥. ما العلاقة بين الجهد الدعوي لعبد الله بن ياسين والنظام السياسي الذي نشأ بعده؟

٦. ما العوامل التي ساعدت عبد الله بن ياسين على النجاح في مهمته الدعوية؟

٧. لماذا يمكن اعتبار عبد الله بن ياسين شخصية مؤسِّسة رغم وفاته المبكرة نسبيًّا؟

٨. ما اسم الحركة التي أسسها عبد الله بن ياسين؟ ومن هم أتباعه؟

٩. متى تُوفي عبد الله بن ياسين؟ وأين توفي؟ وماذا نستفيد من وفاته؟

١٠. ماذا يمكن أن نتعلم من ثبات عبد الله بن ياسين على منهجه رغم الإعراض والمعارضة؟

٩- بقي بن مَخْلَد صاحب أشهر رحلة في طلب الحديث.

هو الإمامُ العالِمُ، المحدّثُ الرّحّالةُ، بَقِيُّ بنُ مَخْلَدِ بنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أبو عبد الرحمن القرطبي الأندلسيّ، من أعلام القرن الثالث الهجري، وُلِدَ أحد روّاد النهضة الحديثية في الأندلس في قلب الأندلس الزاهية، وفي مدينة قرطبة حاضرة العلم والتقوى آنذاك في سنة ٢٠١هـ ونشأ في بيتٍ متديّن محافظ على الدين ملتزم به، مشبعٍ بروح الدين والطلب والمعرفة، تشرّب فيه حبَّ السنة النبوية منذ نعومة أظفاره، وكان والده يشجّعه على طلب العلم ويُشجعه بالذهاب إلى الحلقات القرآنية ومجالس الحديث، مما جعل قلبه معلّقًا بحديث رسول الله ﷺ منذ شبابه، حاملًا منذ نعومة أظفاره تميّزًا داخليًا، وصوتًا خفيًا يناديه: "العلم طريقك إلى الله، فاصبر حتى تصل إليه".

وفي زوايا المسجد الجامع، كان بَقِيّ يجلس صغيرًا، يُحدّق في أفواه العلماء، لا ليفهم فحسب، بل ليحفظ.. يحفظ كل شيء! اللغة، الفقه، الحديث، التفسير، وكان والده يلحظه في صمته العميق وذهوله أمام العالم، فيربّت على كتفه ويقول: "يا بنيّ، اجعل للعلم قلبًا، كما تجعل له عقلًا." عُرف بين أقرانه بشغفه، ولم يكن سلوكه طفوليًّا كسائر الفتيان، بل كان زاهدًا في اللعب، مشغولًا بجمع الكتب وسؤال الشيوخ، وكان يحفظ بسرعة مدهشة. يقول المؤرخ الأندلسي ابن الفرضي: "ملأ بقي بن مخلد الأندلس حديثًا وروايةً، ولم يُرَ مثله في الحفظ".

ولهذا فإن قصة بقي بن مَخْلَد ليست قصة عادية تروى للناس من باب الحكاية، بل هي قصة رجلٍ عاش لأجل العلم ونشره وتعليمه الناس، وقَطَعَ الصحاري والبِحار باحثًا عن نور القرآن والسنة، زاهدًا في الدنيا، ثابتًا على المبدأ، صادقًا في الطلب، صبورًا على الأذى، خلّد الله ذكره ببركة إخلاصه وصِدقه،

سيرته هذه سيرة تربوية تُروى بروح وجدانية، وتُوثق بأمانة علمية، لتُلهِم شباب اليوم أن يكونوا على درب الهِمّة واليقين، كان إذا سمع عن راوٍ ثقة، نَقَضَ رحالهُ إليه دون توانٍ. حتى أنه قال يومًا: "إن فاتني طعام يومي، فلا يفوتني سماعُ حديثٍ يُرضي ربي، هنا تتجلّى عظمة الإمام بَقِيّ، الذي ترك الدنيا وراء ظهره، وركض في فلواتٍ موحشة، وصحراء بلا أنيس، لأجل أن يسمع حديثًا واحدًا من رسول الله ﷺ[1].

مكانته العلمية:

عدّه العلماء من كبار أهل الحديث في الغرب الإسلامي، وامتاز عن أقرانه بكثرة الرحلات، وحسن التصنيف، وجمع الروايات، مع التثبت والتحرّي في نقل الأخبار. وبلغت شهرته في حياته الآفاق، حتى صار مرجعًا للمحدثين وتفسير القرآن الكريم، حتى قيل عنه أنه كان من مجابي الدعوة، من الناس المشهورة بأن دعوتها مستجابة، ومن أئمة الزهد والورع في الأندلس، يقصدونه من شتى مدنها لقراءة الحديث والتفسير عليه[2].

كانت فكرته المركزية أن تكون السُّنّة النبوية هي النور الذي تنبع منه كل علوم الدين، وأن يكون العالم عبدًا لله طالبًا للعلوم الشرعية خاصة الحديث، لا يكون المسلم عبدًا للسلطان، ولا لأهواء الناس، هكذا كانت نشأة بَقِيّ بن مَخْلَد: نقاءٌ في الطفولة، وعشقٌ للعلم، وزهدٌ في اللهو، وصبرٌ على الشدائد، وإن لم تكن ظروفه مثالية، لكنه حمل سلاح الهمّة العالية، وسار به في طريقٍ سيغيّر الله به وجه الأندلس للأفضل من جهة العِلم.

(١) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، (١٦٣/١). جمهرة أنساب العرب، (٣١٢)، دولة الإسلام في الأندلس، عبد الله عنان، (٤٥/٢).

(٢) سِير أعلام النبلاء، الذهبي، (٢٨٩/١٣).

مِحْنَةُ الرِّحْلَة.. وَبَهْجَةُ الطَّلَب.

كانت قرطبة عصر بقيّ بن مَخْلَد تزدهر تحت الحُكم الأموي، وقد أضحت مناراتها تُشعُّ علمًا في مشارق الأرض ومغاربها، وكان من الشائع أن ترى فيها مئات المجالس العلمية، يُدرَّس فيها الفقه المالكي، ويُحفظ فيها أجزاءً من الحديث النبوي، وتُعرض مسائل العقيدة واللغة والمنطق والفلك والطب وغيرها من العلوم، ولعل هذه البيئة الزاخرة كانت أشبه بالحاضنة التي أنبتت نبوغ بَقِيّ وأطلقت همّته، على الرغم من أنه لم يكن في بيته ثروة من المال، لكن كانت فيه كنوز من الدين والزهد والورع، فقد كانت والدته تقول له: "يا بُنَيّ، من أراد الدنيا فليطلب العلم، ومن أراد الآخرة فليطلب العلم، ومن أرادهما معًا، فلا طريق له سواه!". وهكذا بدأت معالم رجل رباني تتشكل في هيئة طفل قرطبي صغير، يرتدي البساطة، ويحمل في عينيه أسئلة لا تنتهي، وفي صدره توقٌ للعلم لا ينطفئ، كان يرى المشايخ والطلاب في مساجد قرطبة فتتسارع دقات قلبه، ويتمنى أن يصير في يوم من الأيام واحدًا منهم.. بل إمامًا لهم، وهكذا حين تشتعل شرارة الشغف في قلب شابّ، يصبح العالمُ كلّه أمامه طريقًا مفتوحًا، هكذا كان بقيُّ بنُ مَخْلَدٍ الأندلسي في مقتبل عمره، لم يكن المال وفيرًا، ولا الطريق آمنًا، ولا الزاد كثيرًا، ولكن كانت الهمّة تسابق الأقدام، والإخلاص يضيء الظلمات، فقرر هذا الشّاب وهو في عمر الزهور أن يخرج وحده في طلب العلم إلى بلاد المشرق العربي، مع أنه فقير لم يكن معه من المال إلا ما يقوته لفترة محدودة، لكنه في رحلته قرّر أن يشتغل في المدن التي يمر بها، وينفق من كسب يده، ثم ينتقل منها إلى غيرها حتى يصل إلى مراده، ولم تكن طريقه للعلم مفروشة بالورود، بل ناله من الفقر والمرض ما نال، حتى إنه كان ينام أحيانًا بلا غطاء، ويكتب الأحاديث على العظام والجلود إذا لم يجد

الورق. وكان يعمل أعمالًا شاقة في البلدان التي يزورها، من أجل تحصيل القوت واستكمال الرحلة، ومع كل تعبٍ ودمعة، كان قلبه عامرًا بالإيمان، ولسانه رطبًا بذكر الله، وروحه تطير شوقًا إلى حديث الحبيب ﷺ.

وفي ظلال الأندلس الوادعة الوارفة، حيث عبق الزيتون وخرير الجداول، كان شابٌّ يُعدّ متاعه، ويودّع أمَّه بقلبٍ لا يكاد يحمل نفسه من الشوق.. لا إلى ثراء أو مال، ولا إلى جاه أو سلطان، بل إلى أعظم غايةٍ يسعى لها شابٌّ في مقتبل عمره ألا وهي العلم.

ومع أن مدينة قرطبة كانت وقتئذٍ قلب العلم وقلعة الثقافة، لكنه لما رأى نفسه قد اشتدَّ عوده، حتى توهّج في قلبه نور طلب الحديث، فرأى أن العلم لا يُنال في الدعة، ولا يُؤخذ عن الكسلان، ولا يُورث في بيوت المال، فقرر الرحيل إلى منبع العلم في زمانها، ألا وهي بلاد الشرق وأولها بلاد الحجاز بلاد آثار الرسول والصحابة، وكانت المفاجئة أن تكون الرحلة سيرًا على الأقدام، قاطعًا آلاف الأميال، لا يحمل إلا قلبًا عامرًا بالإيمان، وعينًا تشتاق حديث النبي ﷺ. وكانت مكة والمدينة أولى محطات الرحلة، ومنها توجه إلى العراق، قال: "خرجتُ من قرطبة حاجًّا، طالبًا للعلم، فبلغتُ المدينة، ثم قصدتُ العراق" وعمره آنذاك نحوًا من عشرين عامًا[1].

قالوا عن بَقيّ بن مَخْلَد.

امتاز بَقِيّ بن مَخْلَد بأنه لم يكن مجرد محدّث يُحصي الأسانيد والمتون، بل كان عالِمًا ومربّيًا واعيًا لحال الأمة، متألمًا لضعفها وما يحدث لها من تكالب

(١) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، (١/ ١٢٢)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، (١١/ ١٨٣).

الأعداء عليها، وكان يدعو دومًا إلى إحياء العلم بالعمل، وكان من أبرز الدعاة إلى وحدة الصف بين المسلمين، ونبذ التعصب والفُرقة، داعيًا قولا وعملًا بِالعودة إلى الكتاب والسنة وكان كلامه يُحيي القلوب، وتواضعه يُقنع النفوس، وحياته خطبةٌ صامتةٌ في الزهد والتقوى.

ولذا كان واقع الأندلس قبل بَقِيّ أنها لم تكن مشهورة بجهابذة المحدثين، فغرس هو بذرة الاهتمام بالسنة، ونقلها من المشرق إلى المغرب، وأسس منهجًا حديثيًّا صافيًا، فصار بها إمامًا للمحدثين، وتخرّج على يديه علماء كُثر، أمثال: ابن عبد البر، وابن حزم الأندلسي، وأبو بكر بن داود، وغيرهم الكثير والكثير.. وكان لتأثيره أثر عميق في تصحيح كثير من الأحاديث المنتشرة، وبناء رؤية علمية رصينة للأندلسيين تجاه السُّنة حتى قيل عنه: "هو الذي نشر الحديث الصحيح في ديار الغرب الإسلامي كما نشره البخاري في المشرق" وقال عنه الإمام الذهبي: "كان قرطبيًا حافظًا، صاحب رحلة طويلة، جمع وصنّف، وكان من أوعية العلم"، وما زال علماء الحديث القُدَامَى والمعاصرون يُشيدون بإمامته، ويُعتمد اسمه في علم الجرح والتعديل، وكتبه وإن لم تصلنا كاملة، إلا أن أثرها باقٍ في كتب المحدثين، ويكفيه فخرًا أن اسمه لا يغيب عن أعمدة التراجم العلمية الكبرى، «وسمع: يحيى بنَ يحيى اللَّيثيَّ القُرْطبي، وأبا مصعب الزُّهري، ويحيى بنَ بُكير، وإبراهيم بنَ المنذر الحِزَامي، وزهيرَ بنَ عبّاد، وصفوانَ بنَ صالح، ويحيى بنَ عبد الحميد، وابنَ نُمير، وابنَ أبي شَيبة. وطوَّفَ الشرقَ والغرب، وشيوخُهُ مئتان ونيِّف وثمانون، روى عنه: ابنُه أحمد، وأحمد بنُ عبد الله الأموي، وأسلم بن عبد العزيز، ومحمدُ بنُ عمر بن لُبابة، والحسن بنُ سعد، وعبد اللهِ بنُ يونس القَبْري، وغيرهم»[1].

(١) الأعلام، الزركلي، (٨٤/٢)، سِير النبلاء، (٢٩٤/١٣-٣١٢)، طبقات علماء الحديث، ابن عبد الهادي، (٢/ ٣٣٤).

قال عنه المؤرخ الكبير ابن أبي خيثمة، وهو من العلماء الكبار في التاريخ، وفي الفقه، وفي الأصول، وكان معاصرًا لبقي بن مَخْلَد، كان يقول: "كنا نسميه المكنسة" لأنه كان لا يترك شاردة ولا واردة إلا ويُدَوِّنها ويُعلِّق عليها في كتبه، فلذلك أطلقوا بهذا الاسم.

وكان يقول: "وهل احتاج بلدٌ فيه بقي بن مَخْلَد أن يذهب إلى العراق" البلد التي كان يعيش فيها ابن أبي خيثمة، ومعنى قوله: أي أنه منذ أن ظهر بقي بن مَخْلَد في الأندلس لم يذهب أحد من الأندلس إلى بلاد العراق لطلب العلم هناك؛ لأن بقيّ بن مَخْلَد كفاهم مؤونة الطلب، كما أن المؤرخ الأندلسي الشهير ابن الفرضي، كان يقول: "بقي بن مَخْلَد ملأ الأندلس حديثًا وروايةً" ومثله ابن حزم الذي كان شديد الانبهار ببقي بن مَخْلَد وكان يقول: "وإذا سمَّينا بقي بن مخلد لم يسابق به إلَّا" أربعة فقط البخاري ومسلم والنسائي وأبو داوُد" أما غير ذلك فبقي بن مَخْلَد هو السابق بين بقية علماء الحديث، وقال طاهر بن عبد العزيز: حملت معي جزءاً من مسند بقي بن مخلد إلى المشرق فأريته محمد بن إسماعيل الصائغ فقال: ما اغترف هذا إلا من بحر وعجب من كثرة علمه.

كما أشاد به الفقيه الفذ ابن عبد الهادي المقدسي، صاحب كتاب (طبقات علماء الحديث)، قال عن بقي بن مَخْلَد: "وذُكر عن بقي خيرٌ ونُسُكٌ وإيثارٌ حتى بثوبه"، إذ مرّ على فقير ذات مرة، وليس معه ما يعطيه له، فخلع ثوبه وتصدق به، وكان مجاب الدعوة، ثم هذه الكلمة الراقية التي لا يقدر عليها كلّ أحد قال: "وحضر سبعين غزوة في سبيل الله" ليس علم وفقط بل معه جهاد في سبيل الله، وقيام، وقراءة قرآن، وحديث، وتفسير، وإنفاق، لم يترك مجالًا من مجالات البر إلَّا وأبدع فيه!! رحمه الله وألَّف كتابًا في التفسير، يقول

عنه ابن حزم: "هذا الكتاب أقطع قطعًا لا أستثني فيه أنه لم يؤلَّف في الإسلام تفسيرٌ مثله، ولا تفسير الطبري ولا غيره"[(١)].

موقفٌ خلّده التاريخ:

موقف بقي بن مَخْلَد الذي سنذكره، موقفًا استغرق حوالي عشرين سنة، ليس موقفًا بلحظة أو بساعة، أو ساعتين، لا، موقف استغرق سنين طويلة، بقي بن مَخْلَد خرج من الأندلس سنة ٢٢٤هـ لطلب العلم، كان عمره ٢٣ سنة، وُلد سنة ٢٠١هـ فخرج سنة ٢٢٤هـ لطلب العلم، متى عاد إلى الأندلس؟ عاد سنة ٢٤٤هـ عشرون سنة في رحلة طلب العلم!! خرج من الأندلس ليتعلَّم، وذاك الزمنٌ ليس فيه هاتف، ولا انترنت، ولا وسائل التواصل الاجتماعي، ولا شيئاً من التقدم الذي نعرفه الآن، خرج وعاد بعد عشرين سنة، سافر إلى تونس، وإلى مصر، وعاش في مصر بعض الوقت، وسافر إلى مكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة، وبغداد، أي مكان فيه علم ينتقل إليه، رحلة استغرقت عشرين سنة يبحث عن العلم، سبحان الله، وكل سنة قبل موسم الحج يفرِّغ نفسه من العلم، ويتجه إلى مكة للحج، حتى حجّ عشرين حجة!! لم يترك مجالًا -رحمه الله- إلَّا ويسهم فيه وهذه رحلته الأولى.

وقيل: إن له رحلة أخرى، فبعد أن عاد إلى الأندلس بعد عشرين سنة، ومكث بها فترة، فخرج ثانية أربعة عشرة سنة، أي أربعة وثلاثين سنة في العلم، وهذه الرحلات كلها كان يقطعها سيرًا على قدميه، لقلة النفقة، فقير، ليس عنده المال الكثير الذي يقتني بها دواب وينفق على نفسه، ينزل في كل بلد يعمل فيها فترة أي عمل، ينفق على نفسه، ويدخر بعض المال لينتقل بها إلى

(١) "الصلة" لابن بشكوال، (١١٧/١)، تاريخ علماء الأندلس: ١/ ٩٢. الإكمال لابن ماكولا: ١/ ٣٤٤، تاريخ ابن عساكر: ٣/ ٢٠٣. الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، (١٠١/١)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٧٩).

بلدٍ ثانٍ وثالث ورابع، هذه حياته كلها، رحمه الله[١].

وهناك موقف يُروى له مع الإمام أحمد بن حنبل هو أنه يريد أن يتعلَّم على يد أحمد بن حنبل، لا يستطيع أن يصل إليه؛ لأن أحمد بن حنبل في الإقامة الجبرية داخل بيته بأمر من السلطان آنذاك، فذهب إلى بيته، وسأل على بيته، وطرق الباب -مع خطورة الموقف- لأن البيت تحت المراقبة، طرق الباب، فتح له أحمد بن حنبل، فوجد شخصًا غريبًا، قال له: مَنْ أنت؟ قال: "أنا بقي بن مَخْلَد، أنا قادم من بلاد بعيدة، من المغرب الأقصى" قال: "من بلاد المغرب"؟ قال: "أُجَوِّز البحر إلى بلاد المغرب، أنا من الأندلس". قال: "بلدك بعيدٌ، ما أحب لي أن أساعد أحدًا إلَّا أنت". أنت جئت من سفر بعيد جدًا، فأنا أريد أن أساعدك، لكن أنا كما تراني، مبتلى، ممتحن، محبوس في بيتي، قال له بقي بن مَخْلَد أنا سأتزيَّا بزي المتسولين، وآتي إلى بابك، أطرق على الباب، وأقول: أنا أريد الأجر من الله، فتفتح لي وتعطيني ولو حديثًا واحدًا، فمكث على هذا سنة أو أكثر [٢].

وكانت النتيجة أن ألَّف بقي بن مَخْلَد مُسنَده الذي يُعد من مفاخر الأندلس وأكبر مسند في الحديث الشريف، والذي جمع فيه حوالي ٣٠٩٦٩ حديث، أكبر من مسند الإمام أحمد بن حنبل ولكنه للأسف غير موجودٍ، حيث فُقِد مع ما فُقِد من ثروات المسلمين على مدار التاريخ، نتيجة قيام الصليبيين

(١) سير أعلام النبلاء، (٢٩١/١٣). بغية الملتمس: ٢٤٥، البداية والنهاية: ١١/ ٥٦، نفح الطيب: ٢/ ٤٧، ٥١٨.

(٢) **قال الذهبي في سير أعلام النبلاء** ط الحديث (١٠/ ٣٨٣) "نقلها القاسم بن بشكوال في بعض تآليفه ونقلتها أنا من خط شيخنا أبي الوليد بن الحاج **وهي منكرة** وما وصل ابن مخلد إلى الإمام أحمد إلا بعد الثلاثين ومئتين وكان قد قطع الحديث من أثناء سنة ثمان وعشرين وما روى بعد ذلك ولا حديثاً واحداً إلى أن مات. انتهى كلام الذهبي رحمه الله.

لما دخلوا الأندلس بحرق كثير من كتب المسلمين، كان منها كتب بقي بن مَخْلَد، وإن ظلت هذه الكتب قرونًا قبل أن تذهب وتندثر.

عودة العالِم لِبلَده لنشر ما تعلّمه:

عاد بَقِيّ بْنُ مَخْلَد إلى الأندلس بعد رحلته الطويلة المضنية التي امتدت لعشرين سنة في طلب العلم بين مكة والمدينة والبصرة والكوفة وبغداد ومصر، عاد لكنه قد امتلأ قلبه وعقله بنور الحديث والعلوم التي تعلّمها، وتشرّب فكره بأصول السُّنة، وتحمل بين ضلوعه كنوزًا من الروايات والسِّير التي دوّنها.

كانت قرطبة في ذلك العصر مدينة تنبض بالحياة، مهوى العلماء والفقهاء والأدباء، لكنها كانت تفتقر إلى مرجعية حديثية متينة، فوجد فيها بَقِيّ ضالته وميدانه الذي لطالما تهيّأ له في ظلال الدعاء والبُعد والحنين، فهو لم يعد شابًا ناشئًا، بل عاد إمامًا ناضجًا، وعالِمًا كبيرًا يجمع بين عمق الرواية، وزهد المحدثين، وقوة الموقف في مواجهة البدع والانحرافات الفكرية التي بدأت تدب في أوصال المجتمع، فأقام بَقِيّ مجلسًا للعلم في المسجد الجامع بقرطبة، وبدأ يدرس الحديث كما تلقّاه من الكبار أمثال: أحمد بن حنبل، وابن معين، وغيرهما، فهو لم يكن مجرد ناقلٍ للعلوم وفقط، بل كان يشرح ويوضّح، ويُربّي، ويبني العقول والقلوب معًا، واجتمع حوله عشرات طلاب العلم المتشوّقين له الحريصين عليه، حتى جاءه طلاب من جاء من أقصى المغرب ومن مدن الثغور، وامتدت شهرته حتى غدت قرطبة مقصَدًا لمن أراد العُلو في علم الحديث.

ولشِدة شغفه بالعلم وتدوينه له، وصفه ابن أبي خيثمة بقوله: "ما كنا نسميه إلا المكنسة" إشارة إلى أنه كان لا يترك شاردة ولا واردة إلا علّق عليها ودوّنها في كتبه التي بقيت معه، وكان يقول: "وهل احتاج بلد فيه بقي بن مخلد أن يأتي إلى العراق منه أحد؟!"، وقال ابن الفرضي: "ملأ بقي بن مخلد

الأندلس حديثًا ورواية"[1].

فلم تكن عودة بقيّ بن مخلد إلى قرطبة مجرد عودة بجسده فقط، بل كانت عودته ولادة جديدة للحياة العلمية في الأندلس، فأصبح مرجعًا للعلماء وطلبة العلم، ومأوىً للمتخصصين، وتحوّلت مدرسته إلى نواة نهضة حديثية امتدت تأثيراتها إلى قرون بعده، بسبب أهم وأعظم كتاب ألفه المسَمَّى بـــ"مسند بقي بن مخلد"، الذي قال عنه ابن حزم "لم يُصنّف في الإسلام مثله" حيث ضمّ المسند أكثر من ٣٠،٠٠٠ حديث، وكان أوسع وأغزر من مسند الإمام أحمد، لكنه للأسف فُقِد في محنة سقوط الأندلس وحرق مكتباتها، وهو من أكبر الفجائع في تاريخ التراث الإسلامي، كما دوّن كتابًا في التفسير، ذكره ابن حزم، وعدّه من أعظم كتب التفسير.

لقد جسّد بقي بن مخلد في حياته مفهوم "العالِم المُربّي"، فلم يكن محدثًا متشدّدًا في الألفاظ وحسب، بل كان حاملًا لرسالة، يرى أن الهدي النبوي ليس مجرد رواية، بل حياة تُعاش، ومنهج يُقتدى به، كان إذا تكلّم أبكى، وإذا وعظ هزّ القلوب، وإذا غضب للحق لا يُبقي ولا يذر، وكان يربي طلابه على الجدّ، وحسن الخلق، وحمل همّ الأمة، وكان يذمّ الغفلة والترف، ويُحذر من التصنّع في الدين، فتتأثر بها القلوب قبل العقول، حتى قال بقيّ قولته المشهورة:

"**لقد غرستُ للمسلمين غرسًا بالأندلس لا يقلع إلّا بخروج الدجال**"[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ترجمة "بقي بن مخلد"، ابن حزم، رسائل في فضل الأندلس وعلومها، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس.

(٢) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، الزركلي، الأعلام، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، موقع الألوكة: مقالات موسعة عن بقي بن مخلد وآثاره، ابن أبي خيثمة، من مروياته في طبقات المحدثين، سير أعلام النبلاء، (٢٩١/١٣).

شمس الشرق تسطع على قرطبة:

لم تكن مكانة الإمام بقي بن مخلد العلمية ترفًا يُوهَب، أو مجامَلَةً له من عوام الناس أو صِغار طلبة العلم، بل كانت ثمرة مسيرة شاقة، وعقلٍ موسوعيٍ لا يشبع من العلم، وسعيٍ دائم خلف كلِّ درّة من درر الحديث والفقه والتفسير، حتى صار اسمه في الأندلس عَلَمًا على الاجتهاد والمثابرة والصبر على العلم، ومضربًا للمثل في الجِدِّ والتميّز، ولم يكن هذا الثناء مجاملة، بل حقيقة تجلّت في أنَّ بلاد الأندلس اكتفت به عن الرحلة إلى المشرق، يقول المؤرخ ابن أبي خيثمة وهو من معاصريه: "وهل احتاج بلدٌ فيه بقي بن مخلد أن يأتي إلى هنا منه أحد؟"،وكانت مكانته بين العلماء كبيرة بلغت مرتبة عظيمة من التقدير والاحترام، حتى إنَّ ابن حزم الأندلسي، الفقيه الظاهري المعروف، قال عن بقي بن مخلد "إذا سمّينا بقي بن مخلد، لم يُسابق به إلّا البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي" بل قال عنه ابن عبد البر أنَّه كان من أفقه الناس وأوسعهم علمًا وأضبطهم حديثًا في زمانه.

كما كان الإمام بقي بن مخلد مدرسةً عِلمية تربوية في ذاته، فقد أجلس التلاميذ في حلقاته وأشعل العقول بنقاشاته، وتميّز بطريقته التربوية العملية والعميقة، وحرص على تحرير الروايات ونقد الأسانيد، مع تحقيق فائق في الفقه والتفسير، واشتهر عنه عدم تساهله في النقل، فصار يُعدُّ مرجعًا علميًّا في دقّة التحقيق والتمحيص حتى قيل: إنَّ طالب العلم الذي يحضر مجلسه يخرج وكأنّه خَرَجَ من مكتبة عامرة بالمخطوطات، من فرط ما يُغدق عليه من علم وتفصيل موثق بالأدلة والأسانيد.

والحقيقة الواضحة التي اعترف بها القاصي والداني أن بَقِيّ بن مَخْلَد أسّس لنقلة نوعية في الحياة العلمية بالأندلس؛ إذ انتقل بها من التبعية

العلمية لمدارس المشرق، إلى الاستقلال العلمي المرجعي، فقد صار أهل الأندلس يستفتونه في حياته ويدرسون ويعملون بفتاويه بعد وفاته، ويقرؤون تفسيره، ويحفظون حديثه، ويستغنون بمسنده عن غيره، وقد أثّر أسلوبه المنهجي والمنقّح في كل من جاء بعده من علماء الأندلس والمغرب، وكان سببًا في ازدهار مدرسة الحديث في قرطبة، التي خرج منها أعلام كثر [1].

دمعةُ وداع.. وإرثٌ خالد.

في أواخر أيامه كان الإمام بَقِيّ بْنُ مَخْلَد قد أنهى مهمته التي عاش لأجلها، وهي أن يعيد لقرطبة عزّها العلمي، وأن يربط الأندلس بروح الحديث النبوي، وأن يترك في النفوس نورًا لا يخبو، فلم تكن حياته صخبًا ولا جلبة، بل كانت سكينة المؤمن الذي يؤدي رسالته ثم يتوارى بخشوع الصالحين، ولما حلّت سنة ٢٧٦هـ اشتاقت الأرض لجسده الشريف الذي تعب في طلب العلم، كما اشتاقت السماء لروحه التي تاقت لتكون في الدرجة العُليا من الجنة، فمات – رحمه الله – في قرطبة التي وُلِدَ فيها، وكانت جنازته مشهدًا مهيبًا، امتلأ بالحزن والهيبة، وبدموع طلابه وتلامذته وعوام الناس، حتى قال أحد تلامذته: مات يوم مات، ولم تمت المدرسة التي أسسها، فقد بقيت قرطبة تبكيه من جهة، وتُدرّس علمه من جهة أخرى.

وإن من تأمّل المشهد العلمي بعد وفاته، يدرك أن هذا الرجل لم يكن مجرد ناقل حديث، بل كان بانيًا لنهضة علمية مستقلة، فبسبب جهوده لم يَعُد الأندلسيون يعتمدون فقط على فتاوى المشرق أو شيوخه، بل نشأت عندهم ثقة عميقة بذواتهم العلمية، وباتت كتبهم تُطلب، وأحاديثهم تُروى، ومذاهبهم تُصاغ.

(١) تاريخ علماء الأندلس، سير أعلام النبلاء، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، الحلة السيراء، مقالات موثقة من موقع الألوكة.

بل إن المذهب الظاهري الذي انتشر لاحقًا في الأندلس، وازدهر على يد ابن حزم، ما كان ليجد أرضًا صلبة لولا أن مهّد لها رجال كـ بقي بن مخلد، ممن عمّقوا التوجه إلى نصوص الوحي، وحرّروا مدارس الحديث، دون تعصّب للمذاهب، لذا قال عنه ابن عبد البر: "كان واسع العلم، غزير الرواية، بصيرًا بطرق الحديث، حافظًا لعلله، قويًا في الفقه، عفيفًا متواضعًا".

ولم يقتصر تأثيره على الأندلس فحسب، بل نُقلت أقواله، ومنهجه إلى بلاد المغرب، وظهرت بصماته على فقهاء الجزائر وتونس. بل إن علماء المشرق أنفسهم نقلوا عنه، وأشادوا بموسوعته "المسند"، واعتبروها من أعاجيب التأليف، حيث ذكر الذهبي أن "مسنده" كان يُحتفظ به في خزائن العلم في المشرق، ويُنسَخ على نفقة بعض الأمراء، لِما فيه من نفائس العلم، رحم الله الإمام المجتهد بَقيّ بن مَخْلَد وكل من سار على دربه ممن جاءوا بعده ممن كانوا على طريقه طريق النبي ﷺ وطريق الصحابة رضوان الله عليهم، وكأن رحيله كان بداية ميلاد علمٍ وفكرٍ ومدرسةٍ، لا تزال تشهد أن هذا الرجل عاش لله، فخَلَّد الله ذِكْره [1].

الدروس المستفادة من حياة بَقِيّ بن مَخْلَد:

١. الصدق مع الله يجعل أثرك حيًّا حتى بعد رحيلك: فقد مات، وبقيت كتبه، ومناهجه، وتلاميذه.

٢. حبُّ العِلمِ وَالتَّضْحِيَةُ لأَجْلِهِ والتَّفاني في تحصيله: فقد رحل من الأندلس إلى العراق مشيًا على قدميه، قاطعًا آلاف الكيلومترات، رغم شَظَفِ

(١) التمهيد، الإحكام، ابن حزم، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، سير النبلاء، الذهبي، (٢٩٥/١٣)، الصلة، ابن بشكوال، (١٦٥/١)، التذكرة، القرطبي، (٨٧/١)، طوق الحمامة، ابن حزم، (١٤٣).

العيش، وشِدَّة الخطر، في مشهدٍ يُجَسِّدُ عِزَّةَ النفس، وصدق النيّة، وإخلاص الغاية، فقد كان بحق "طلبُ العلمِ عنده عبادةً، والسفرُ إليه حجًّا، والصبرُ على مشقَّاته جهادًا".

٣. القدوةُ في السُّلُوكِ وَالْخُلُقِ وَالإِصْرَار: حيث كان بقيّ بن مخلد مدرسةً في الصبر، وفي احترام العلماء، وفي الأخلاق، عُرِفَ بالوفاء، والجدية، والعفة، ونقاء السريرة، ما جعله محبوبًا في بلده، مقدَّرًا في أقطار الإسلام، فقد جمع الله له علوّ الهمّة، مع صدق التوجُّه، وسموّ النفس، فكان قُدوةً لزمانه.

٤. التواضعُ وسِعَةُ الصدرِ مع طلابه: فلم يكن العلم عنده وسيلةَ كِبر واستعلاء، بل كان في تواضُعه مع طلابه مضربًا للمثل، يحدّث التلاميذ وهم جلوس وهو واقف، وينصت لاستشكالاتهم، ويصحّحهم بلينٍ، ويحثُّهم على الإخلاص، ويُرَغِّبهم في رباط العلم والجهاد، فكان يعامل الطالب معاملةَ الولد الحبيب، يربّيه قبل أن يُعلّمه.

٥. الزُّهدُ في المناصبِ والتَّفرغُ للعلمِ ونفع العباد: فقد عُرِضَتْ عليه المناصب والجاه، فأعرض عنها، مؤثرًا حياة البذل والتعليم والتأليف، حتى بلغ ذِكره الأفاق، وتأليفه في "المسند" صار مرجعًا لا يُضاهى، لو أراد الدنيا لأقبلت عليه، ولكن قلبه كان معلقًا بالآخرة.

الأسئلة:

١. مَنْ هو بَقِيّ بن مخلد؟ ومتى وأين وُلد؟

٢. ما أبرز صفات بَقِيّ في رحلته لطلب العلم؟ ولماذا سافر بَقِيّ إلى المشرق الإسلامي؟ وماذا تعلّم هناك؟

٣. ما موقف الإمام أحمد بن حنبل من بَقِيّ في البداية؟ وكيف تغيّر؟

٤. اذكر اسمًا من كتبه المشهورة، وفي أي علمٍ هذا الكتاب؟

٥. ما العلاقة بين إيمان بَقِيّ بالعلم وبين اختياره لرحلة شاقة إلى المشرق؟

٦. في رأيك، ما الذي جعل بَقِيّ محبوبًا بين أهل الأندلس رغم زهده وبعده عن المناصب؟

٧. لو كنت مكان بَقِيّ، وواجهك رفض الإمام أحمد، ماذا كنت ستفعل؟

٨. كيف تُلهمك قصة بَقِيّ في طلب العلم؟ وكيف يمكننا اليوم إحياء روح الاجتهاد العلمي كما كان بَقِيّ؟

٩. كيف أثّر منهج بَقِيّ في نشر الحديث في الأندلس؟ وكيف انعكس زهده على تأثيره العلمي؟

١٠. ما دلالة أن يجعل من بيته مدرسةً يتعلّم فيها الناس العلم؟ ماذا تتعلم من قصته؟

***

١٠- عطاء بن أبى رباح الحَبْر الزاهد

هو أبو محمد بن أسلم عطاء بن أبي رباح، واسم أبي رباح أسلم مولى آل أبي خيثم الفهري القرشي المكي[١]. اسم أبيه أسلم، وقيل: سالم بن صفوان[٢] نوبي، كان يعمل المكاتل[٣]، واسم أمه أمة سوداء وتسمى: بركة[٤].

ولد بالجَنَد (بلدة باليمن)، ونشأ بمكة، وكان مولده سنة ست وعشرين أثناء خلافة عثمان بن عفان، ولما سُئِل عن مولده قال: لعامين خَلَوا من خلافة عثمان، وكان عطاء أسود أعور أشل أعرج، مفلفل الشعر وكان أنفه كأنه باقلاة، ثم عمى، وكان يخضب بالحناء، أخبرنا الفضل بن دُكين قال: حدّثنا فِطْر قال: رأيتُ عطاء يصفّر لحيته، وقطعت يده في قتال مع ابن الزبير ثم عمي في آخر عمره، وكان من سادات التابعين فقهًا وعلمًا وورعًا وفضلاً لم يكن له فراش إلا المسجد الحرام إلى أن مات[٥][٦].

يُكنى بأبي محمد، ولكنه لُقّب بألقاب كثيرة لكثرة علمه، وسِعة أُفُقه، وشدة فقهه في الدين من أهم هذه الألقاب:

---

(١) طبقات علماء الحديث، ابن عبد الهادي الدمشقي، (١٧١/١).

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (٢٦١/٣)، وإكمال تهذيب الكمال، علاء الدين مغلطاي (٢٤١/٩).

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، (١٤٧/١).

(٤) أخبار المكيين من كتاب التاريخ الكبير لابن أبي خيثمة، (ص٢٧٧).

(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٨٧/٥)، (٤/٢).

(٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٧٤/٤٠)، مرآة الزمان سبط ابن الجوزي، (٣٨/١١)، تهذيب الكمال، (٧٦/٢٠)، سير النبلاء، (٨/٥).

١. فقيه المناسِك: فقيه المناسك، فقد كان أعلم الناس بالحج والمناسك، وكان الأمراء في زمان بني أمية يأمرون مَن ينادي في الناس أن لا يفتي الناس في الحجّ إلا عطاء بن أبي رباح، وذلك لشهادة أهل عصره بعلمه الغزير، حتى قيل عنه فاق عطاء أهل مكة في الفتوى.

٢. مفتي أهل الحجاز: وذلك لأنه آلت إليه الفتوى في زمانه بعد استاذه عبد الله ابن العباس، فكان سيد فقهاء أهل الحجاز ومفتيهم.

نشأته وحياته العلمية:

نشأ الفقيه الكبير عطاء بن أبي رباح بمكة المكرمّة، وفيها تعلم العلوم الأولى من قراءة وكتابة وغير ذلك، ودرس على يد كثير من الصحابة بمكة من أهمهم عبد الله بن عباس وهو الذي أخذ عنه جُلّ علمه ولازمه كثيرا، وجابر ابن عبد الله وأبا هريرة ورافع بن خديج ومعاوية بن أبي سفيان وجابر بن عمير وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير وأبا سعيد الخدري، ونهل من علم السيدة عائشة رضي الله عنها، وغيرهم من الصحابة الكرام. ([1]). والناظر في سبرة الامام عطاء والمطالع لنشأته وحياته العلمية من كتب التراجم والتاريخ، يجد أن عطاء استفاد من إقامته بمكة أكبر الفوائد إذ شهدت مكة المكرّمة توافد كثير من علماء الصحابة خصوصا بعد الفوضى السياسية التي أعقبت مقتل عثمان بن عفان على يد الخارجين عليه من أسافل الناس وأراذلهم، وقد اغتنم عطاء بن أبي رباح هذه الفرصة لرفع رصيده العلمي بالنهل من فيض عِلم أصحاب رسول الله، فما لبث عطاء إلا أن تحرك ليتعلم

(١) انظر: البداية والنهاية، (٦٩/١٣). تهذيب التهذيب لابن حجر (١٩٩/٧)، تاريخ دمشق لابن عساكر، (٣٦٦/٤٠)، تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٣٣٣/١)، تهذيب الكمال للمزي (٧٠/٢٠) سير أعلام النبلاء (٧٩/٥).

من أصحاب رسول الله الحديث والتفسير، والفقه، وسائر العلوم في تلك الحلقات العلمية التي كانت تعقد بمكة، يقول عن نفسه : أدركت مائتي نفس من أصحاب النبي في هذا المسجد إذا قال الإمام " وَلَا ٱلضَّالِّينَ " سمعت لهم رجّة بقولهم "آمين"، ونلاحظ من خلال كلام الامام عطاء أنه قد نشأ في حياة حافلة بالعلم حيث عاش في بيئتين، بيئة الصحابة وبيئة التابعين، مما يعني أن الحياة العلمية في زمانه كانت نشطة وفعالة مما أثر في إخراجه عالماً فذا ضربت سيرته الآفاق في حياته وبعد مماته.

من أخلاق عطاء بن أبي رباح.

تميز الإمام عطاء بالأخلاق الحسنة الطيبة فقد كان ديّنًا ورِعًا تقيا عابدا لربه سبحانه، فقد كان يقوم لصلاته بمائتي آية في ركعة واحدة في آخر حياته مع ضعفه[1]. وقد قيل لابن جريج ما رأيت مصليا مثلك فقال: ما رأيت عطاء بن أبي رباح؛ وقال أيضا: كان عطاء من أحسن الناس صلاة، وقد كان يُرى بين عينيه أثر للسجود. قال عبد الرزاق: ما رأيت عالماً أحسن صلاة من ابن جريج، وذلك أنه أخذ من عطاء بن أبي رباح، وأخذ عطاء من ابن الزبير، وأخذ ابن الزبير من أبي بكر الصديق، وأخذ أبو بكر من رسول الله، وما افتراشه للمسجد الحرام عشرين سنة إلا دليلاً واضحاً على صلته بربه عبادة وذكراً ودعاءً. وكان حريصا على الصوم حتى روي عنه أنه لم يفطر في حياته كلها إلا لما كبر سنه، وضعف فكان يفطر لما أصابه الضعف وكِبَر السِّنّ[2].

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٨٠/٤٠)، سير النبلاء الذهبي، (٥ /٨٧)، إكمال تهذيب الكمال، الذهبي (٢٤٥/٩).

(٢) تاريخ دمشق (٣٨٩/٤٠)، تهذيب الكمال المزي (٧٨/٢٠)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٨٢/٥)، صفة الصفوة لابن الجوزي (١٥/١).

حج عطاء سبعين حجة، فقد مات وعمره قريباً من تسعين سنة كما في بعض الروايات، أُطلق عليه فقيه المناسك لسعة علمه وفقهه بمناسك الحج ولكثرة حجه. كما كان حريصا على إخلاص نيته لله في طلبه للعلم وتعليمه الناس، قال عنه سلمة بن كهيل ما رأيت أحدًا يطلب بعلمه ما عند الله إلا ثلاثة: عطاء، وطاووس، ومجاهد[١]، ومع مكانته العلمية ﷺ وتهافت القاصي والداني إليه الا أنه كان زاهداً في ملبسه ومسكنه وجميع أمور حياته، فقد روى عن عمر بن ذر قال: ما رأيت قط مثل عطاء، وما رأيت على عطاء قميصا قط وما رأيت عليه ثوبا يسوى خمسة دراهم[٢].

وقال ابن جريج ﷺ: كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة. وكان من أحسن الناس صلاة، وهو القائل: "إن الله لا يحب الفتى يلبس الثوب المشهور فيعرض الله عنه حتى يضع ذلك الثوب". لقد كان عطاء بعيدًا كل البعد عن مواطن الشُّهرة، قال الامام الأوزاعي، مات عطاء يوم أن مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس، وروى عن عمر بن ذر قال: ما رأيت قط مثل عطاء، وما رأيت على عطاء قميصا قط، وما رأيت عليه ثوبًا يُسوى خمسة دراهموكان ﷺ حسن الاستماع وقليل الكلام إلا فيما ينفع، فقد روى أنه حدث بحديث فعرض له رجل من القوم في حديثه، فغضب وقال: ما هذه الأخلاق؟ إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأريه أنى لا أحسن شيئاً منه وقال: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصِت له، كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولَد. وقال إسماعيل بن أمية كان عطاء يطيل الصمت فإذا تكلم يُخيل إلينا أنه

(١) مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، لابن حبان (١٧٧)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لابن الجوزي (٤٠/١١)، والبداية والنهاية لابن كثير (٦٩/١٣)، حلية الأولياء، أبو نعيم، (٣١١/٣) والمنتظم في تاريخ الأمم والملوك، لابن الجوزي (١٦٥/٧).

(٢) صفة الصفوة: لابن الجوزي (٤١٥/١). سير أعلام النبلاء للذهبي (٨٧/٥).

مُؤيَّد من الله[1].

العالِم الحقّ لا يخشى في الله أحد:

زَهِد عطاء فيما عند الناس، وكان لدنياه محتقرًا فلم يكن ينظر إليها، حتى ممن عهد عنهم ذلك من الأمراء والحكام، فقد ذهب مرة إلى الشام ودخل على عبد الملك بن مروان فأجلسه بين يديه فقال حاجتك يا أبا محمد؟ فقال: حَرَم الله، وحَرَمَ رسول الله ﷺ فتعاهده. قال: نعم. ثم قال: واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنّ بهم بلغت هذه المنزلة، فلا تقطع عنهم الأرزاق، من هو ببابك، ومن هو ناء عن بابك، وأنت مسئول عنهم. قال: أفعل. ثم قام ولم يسأله لنفسه حاجة. فقال: عبد الملك هذا وأبيك الشرف والسؤدد[2].

وفي إحدى السنوات، وفي أشهر الحج وفد الحُجَّاجُ مشاة وركبانًا شيوخًا وشبانًا رجالاً ونساء، فيهم الأسود والأبيض والعربي والعجمي والسيد والمسود، قدموا جميعًا إلى المسجد الحرام خاشعين لله ملبّين راجين مؤمِّلين في ربهم خيراً، في الحرم المكي وفي ذلك اليوم العامر بالحجيج، المليء بأصوات التلبية تتردّد في أرجاء المكان، ونسيم مكة الحارّ يختلط برائحة الطيب التي تفوح من ثياب القادمين من كل الأقطار. وفي وسط هذا الزِّحام في المسجد الحرام، وتحت ظلّ الكعبة، يجلس شيخٌ أسود اللون، أشعث الشعر، عليه ثوب بسيط مرقوع، تحيط به حلقة من طلاب العلم، كان هو عطاء بن أبي رباح، عالم مكة وفقيهها، وقد انحنى على ركبتيه يشرح أحكام المناسك، وعيناه تلمعان بوقار

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٤١٥/١)، المعرفة والتاريخ للفسوي (٧٠٢/٥)، وفيات الأعيان (١٢٨/٣)، مرآة الزمان لابن الجوزي (٣٩/١١).

(٢) تهذيب الكمال، الذهبي (٨٠٨١/٢٠)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٨٥٣٨٦/٥)، المنتظم، لابن الجوزي (١٦٦/٧).

العالم الزاهد، وفي تلك اللحظة، انفرجت الصفوف فجأة.. أصوات خافتة تتردّد: "أمير المؤمنين! أمير المؤمنين!"، وحرس بلباسهم الفاخر يمهّدون الطريق لرجل مهيب، تتلألأ على رأسه عمامة فاخرة، وخلفه أبناؤه ووجوه الدولة حوله من كل جانب، إنه سليمان بن عبد الملك، خليفة المسلمين.

وما إن انتهى من طوافه حتى مال على رجل من خاصّته وقال: أين صاحبكم – يقصد عطاء بن أبي رباح- فقال: إنه هناك يصلي، وأشار إلى الناحية الغربية من المسجد الحرام فاتجه هو وولداه إلى حيث يجلس عطاء بن أبي رباح التابعي الجليل رضي الله عنه، وأراد معاونو الخليفة وخاصته أن يفسحوا له الطريق ويدفعوا عنه أذى الزحام فنهاهم عن ذلك وقال: هذا مقام يستوي فيه الملوك والسُّوقَة ولا يفضُلُ فيه أحدٌ أحدًا إلا بالقبول والتقوى ورُبَّ أشعث (أي متلبد الشعر) أغبر تكاثر عليه الغُبار قدِمَ على الله فتقَّبّله بما لم يتقبل به الملوك.

ثم مضى سليمان نحو عطاء رضي الله عنه فوجده ما يزال داخلًا في صلاته غارقًا في ركوعه وسجوده والناس جلوس وراءه عن يمينه وشماله فجلس حيث انتهى به المجلس وأجلس معه ولديه، وانتهى الإمام من صلاته ومال بشقّه أي بطرفه على الجهة التي فيها الخليفة فحيّاه سليمان بن عبد الملك فرد التحية بمثلها وأقبل عليه الخليفة وجعل يسأله عن مناسك الحج منسكًا منسكًا وهو يفيض بالإجابة ويُفصّل القول فيها تفصيلًا ويُسند كل قول بقوله إلى رسول الله ﷺ.

ولما انتهى الخليفة من المسائل قال له: جزاك الله خيرًا، فقام الثلاثة نحو المسعى وسمعوا مناديًا ينادي: لا يفتي الناس في هذا المقام إلا عطاء فإن لم يوجد فابن أَبِي نَجِيْحٍ. فقال الولدان لأبيهما: كيف يأمر عامل الخليفة الناس بأن لا يستفتوا أحدًا غير عطاء بن أبي رباح وصاحبه ثم جئنا نستفتي هذا الرجل

الشيخ الحبشي أسود البشرة الذي لم يأبه للخليفة، فقال عندها سليمان لولده: هذا الذي رأيته يا بنيَّ ورأيت ذلّنا بين يديه هو عطاء بن أبي رباح صاحب الفتيا في المسجد الحرام، ووارث عِلم عبد الله بن عباس، ثم أردف يقول: يا بنيَّ تعلموا العلم فبالعلم يشرُف الوضيع وينبه الخامل ويعلو الأرقاء على مراتب الملوك.

ولم يكن سليمان مبالغًا فيما قال في شأن العلم، فقد كان عطاء بن أبي رباح في صغره عبدًا مملوكًا لامرأة من أهل مكة، غير أن الله عز وجل أكرم الغلام الحبشي بأن وضع قدميه منذ نعومة أظفاره في طريق العلم، فقسَّم وقته أقسامًا ثلاثة: قِسْمٌ جعله لسيدته يخدمها فيه أحسن ما تكون الخدمة، ويؤدّي لها حقوقها عليه أكمل ما تؤدّى الحقوق، وقِسْم جعله لربّه يفرُغُ فيه لعبادته أصفى ما تكون العبادة وأخلصها لله تعالى، وقِسْمٌ جعله لطلب العلم حيث أقبل على من بقي حيًا من صحابة رسول الله، وطفق ينهل من مناهلهم الغزيرة الصافية، حتى امتلأ صدره علمًا وفقهًا ورواية عن رسول الله، فلما رأت السيدة المكية أن غلامها قد باع نفسه لله تعالى وعكف على طلب العلم، تخلت عن حقها فيه وأعتقت رقبته تقربًا إلى الله عز وجل لعل الله ينفع به الإسلام والمسلمين، ومنذ ذلك اليوم اتخذ عطاء بن أبي رباح البيت الحرام مقامًا له، فجعله داره التي يأوي إليها، ومدرسته التي يتعلم فيها، ومصلاه الذي يتقرب فيه إلى الله بالتقوى والطاعة[1].

نُصحه للحاكم وشفقته على المسلمين.

أما حاله مع الدنيا فقد صَدَّ عنها ولم يعبأ بها، وأباها أعظم الإباء، وعاش

(١) صفة الصفوة، (١٠١/٢)، البداية والنهاية، (١٤٢/٩)، سير أعلام النبلاء، (٨٨/٥)، الانتقاء في فضائل الائمة الفقهاء ١٤٠.

عُمُرَه يلبس قميصًا لا يزيد ثمنه على خمسة دراهم، ولقد دعاه الخلفاء إلى مصاحبتهم فلم يُجب دعوتهم لخشيته على دينه من دنياهم، لكنه مع ذلك كان يفِدُ إليهم إذا وجد في ذلك فائدة للمسلمين أو خيرًا للإسلام.

من ذلك ما حـدَّث به عثمان بن عطاء الخُراساني قال: انطلقت مع أبي نريد هشام بن عبد الملك فلما عدونا قريبًا من دمشق، إذ نحن بشيخ على حمار أسود عليه قميص خشن كثيف النَّسْج، وجُبَّةٌ بالية وقلنسوة لازقة برأسه، وركاباه من خشب، فضحكتُ منه وقلتُ لأبِي: من هذا؟ فقال: اسكُت هذا سيد فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح، فلما قرب منا نزل أبي عن بغلته، ونزل هو عن حماره فاعتنقا وتساءلا، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب قصر هشام بن عبد الملك فاستقر بهما الجلوس حتى أُذن لهما، فلما خرج أبي قلت له: حدثني بما كان منكما، فقال: لما علم هشام أن عطاء بن أبي رباح بالباب بادر فأذن له ووالله ما دخلت إلا بسببه. فلما رءاه هشام قال: مرحبا مرحبا ههنا ههنا، وأجلسه على سريره ومسَّ بِرُكبته رُكبته، وكان في المجلس أشراف الناس يتحدثون فسكتوا، ثم أقبل عليه هشام وقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: يا أمير المؤمنين أهل الحرمين جيران رسول الله تُقسّم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم، فقال: نعم.. يا غلام اكتب لأهل مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لسَنَةٍ كاملة، ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقادة الإسلام تردُّ فيهم فضول صدقاتهم، فقال: نعم، يا غلام اكتب بأن تُرَد فيهم فضول صدقاتهم، هل من حاجة غير ذلك يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور المرابطون على تخوم البلاد في مواجهة العدو، يقفون في وجوه عدوّكم ويقتلون من رام المسلمين بِشَرّ، تُجري عليهم أرزاقًا تدرها عليهم فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور، فقال: نعم، يا غلام اكتب بحمل أرزاقهم إليهم، هل من حاجة غيرها يا

أبا محمد؟ قال: نعم، اتق الله في نفسك يا أمير المؤمنين، واعلم أنك خُلقت وحدك وتموت وحدك وتُحشر وحدك وتُحاسب وحدك ولا والله ما معك ممن ترى أحدًا. فأكبّ هشام ينكث في الأرض وهو يبكي، فقام عطاء فقمت معه فلما صرنا عند الباب، إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه، وقال له: إنَّ أمير المؤمنين بعث لك بهذا، فقال: هيهات ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [سورة الشعراء: ١٠٩].

فوالله إنه دخل على الخليفة وخرج من عنده ولم يشرب قطرة ما[1].

وجاءت ساعة الوداع:

طال عمر سيدنا عطاء بن أبي رباح بمحل إقامته بمكة المكرمة، حتى بلغ قرابة التسعين من عمره ملأها كلها بالعلم والعمل والبر والتقوى، وزكاها بالزهد فيما في أيدي الناس والرغبة بما عند الله، فلما أتاه اليقين وَجَدَه متخفِّفًا من أثقال الدنيا، كثير الزاد من عمل الآخرة ومعه فوق ذلك سبعين حَجَّة، وقف خلالَها سبعين مرَّة على عرفات وهو يسأل الله تعالى رضاه والجنة ويستعيذ به من سخطه والنار، بعد هذه الرحلة المباركة حانت لحظة الرحيل، وجاءت ساعة الوداع بوفاة عطاء بن أبي رباح بمكة المكرمة، المدينة التي وُلد فيها، وعاش فيها معلمًا للناس وفقيهًا للحرم، ومرجعًا للحجاج والمعتمرين من كل مكان، كان ذلك سنة ١١٤ هـ على الأشهر، وقيل: سنة ١١٥ هـ. رحم الله عطاء بن أبي رباح وأكثر من أمثاله في هذه الأمة علمًا وورعًا وزهدًا وإخلاصًا وخوفًا من الله وخدمة لهذه الأمّة.

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٤٢/٩)، صفة الصفوة، ابن الجوزي (١٠١/٢).

الدروس المستفادة من حياة عطاء بن أبي رباح.

العلماء يحملون هموم الأمة:

عندما دخل عطاء على الخليفة لم يطلب منه مصالح شخصية، أو مطالب دنيوية لنفسه أو لأقربائه أو لأصدقائه بل اهتم برزق وأعطيات أهل الحرمين وأهل الثغور، وهكذا يجب أن يكون العلماء الرّبانيون دائمًا ما يحملون هموم أمّتهم ويكونون في طليعتها في كل ما ينفعها في دينها ودنياها.

العلماء هم القدوة العملية:

وهذا ما جسّده عطاء بن أبي رباح في حياته بالعمل بما يدعو إليه من زهد وعدل وتقوى، فصار مثالًا يحتذى به.

العلم يرفع صاحبه حتى فوق الملوك:

فقد شهد الخلفاء بأنفسهم بأن رفعة العلم أعظم من رفعة النسب أو المنصب، وهذا ما قاله بحاله ولسانه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك حيث قال لولده: هذا الذي رأيته يا بنيَّ ورأيت ذلّنا بين يديه هو عطاء بن أبي رباح صاحب الفتيا في المسجد الحرام، ووارث عِلم عبد الله بن عباس، ثم أردف يقول: يا بَنِيَّ تعلموا العلم فبالعلم يشرُف الوضيع وينبه الخامل ويعلو الأرقاء على مراتب الملوك.

الثبات على المبدأ:

لم يغيّر عطاء أسلوبه أو فتاواه أمام الملوك خوفاً منهم أو طمعاً فيما عندهم، بل بقي كما هو مع العامة كما هو مع الملوك وأصحاب الجاه.

نشر العلم للجميع:

فقد كان مجلسه مفتوحًا لكل الناس دون تمييز بين غني وفقير أو أمير وعاميّ.

النصيحة للحاكم إذا رأى منه أي تقصير تجاه الرعية:

فقد قدّم نصيحة مباشرة للحكام بأدب النصيحة، بدأها بتقوى الله والعدل، وهي أولويات التربية الإسلامية.

تقوى الله أساس المهابة:

من اتقى الله جعل له هيبة في قلوب الخلق حتى الملوك، ولو كان فقير المظهر.

الإخلاص في العمل والزهد في الدنيا:

فالتجرّد من التعلق بالمال والمناصب يجعل الإنسان أكثر حرية في قول الحق ولا يخاف إلا الله، فلم يسعَ عطاء لمدح الناس أو رضا السلطان، بل كان همُّه رضا الله أولًا.

الأسئلة.

١. مَن هو عطاء بن أبي رباح؟ اذكر اسمه ونسبه وبلده التي عاش فيها؟

٢. ما أبرز صفاته الخُلُقية والخِلقيّة التي اشتهر بها؟

٣. ما المناصب أو الأدوار التي قام بها في مكة المكرمة؟

٤. اذكر خلفتين من الخلفاء الذين تعامل معهم عطاء بن أبي رباح؟

٥. ما موقفه عندما جلس أمامه سليمان بن عبد الملك في الحرم؟

٦. لماذا لم يتغير أسلوب عطاء في كلامه سواء أمام عامة الناس أو أمام الخليفة؟

٧. ما الصفات التي تحتاج أن تكتسبها لتكون شبيهًا بعطاء في الشجاعة والزهد؟

٨. صِف موقفًا في حياتك أو حياة من تعرفه، كان فيه الثبات على المبدأ أمام شخص له سلطة؟

٩. ما الرسائل التربوية التي نستفيدها من نصيحته لهشام بن عبد الملك في القصر؟

١٠. في رأيك، لماذا بدأ عطاء نصيحته للحاكم بأمره بتقوى الله قبل أي طلب دنيوي؟

***

فهرس الموضوعات

المقدِّمة..... ٨
١- نظام المُلْك الطُّوسِيّ الوزير العالِم..... ١١
الفقر ليس عائقًا..... ١٢
الوزير الأول في تاريخ المسلمين..... ١٤
محبّةٌ لا تمنع النصيحة..... ١٦
بين يَدَيِ النَّصيحة..... ١٦
ردٌّ بليغ من الوزير الزاهد..... ١٨
الوزير والمدارس النِّظاميّة..... ٢٠
ما يستفاد من سيرة الوزير "نِظام المُلْك"..... ٢٢
وفاته..... ٢٣
إرثه وتأثيره..... ٢٣
الأسئلة..... ٢٤
٢- عبد الله بن المبارك..... ٢٥
ابن المبارك العالِم المحدّث..... ٢٧
النَّسّب ليس مُهِمًّا..... ٢٨
السِّرّ في صلاح الأبناء..... ٣١
الوالد الصالح يخرج منه ولد صالح..... ٣٥
ابن المبارك وماذا قيل عنه..... ٣٧
ما يستفاد من سيرة ابن المبارك..... ٤٤
الأسئلة..... ٤٥
٣- العزّ بن عبد السلام..... ٤٧
نشأته وطلبه للعلم..... ٤٨

جوانب مُضيئة في حياة العِزّ بن عبد السلام ٥٠
كما أن له مواقفه العظيمة في مصر ٥٢
ما يستفاد من سيرة العِزّ بن عبد السلام ٦٠
الأسئلة ٦١
٤- أبو الفرج ابن الجوزي ٦٣
اسمه ونَسَبُه ٦٣
اليُتم مع الرعاية ليس عائقًا ٦٣
بداية طَلَبِه للعلم ٦٥
محنة ابن الجوزي ٦٩
من أقوال العلماء فيه ٧٢
من أهمّ مصنفاته ٧٤
من وصايا ابن الجوزي وأقواله ٧٥
ما يستفاد من سيرة الإمام ابن الجوزي ٧٦
الأسئلة ٧٧
٥- الإمام الكبير جلال الدين السيوطي ٧٩
نشأته وتعليمه ٨٠
وقفات مع الإمام السيوطيّ ٨٢
من مزاياه وخصوصياته ٨٥
مكانة الإمام السيوطي العلمية ٩١
ومن أبرز معالم مكانته العلمية ٩٣
ثانيًا الاجتهاد والإمامة ٩٤
ثالثًا ثناء العلماء عليه ٩٤
وفاته ٩٥
الدروس المستفادة من حياة السيوطيّ ٩٦

الأسئلة.....٩٧
٦- الكسائي وعدم التكبر على طلب العلم.....٩٨
نشأة الكسائي وتكوينه العلمي.....٩٩
القُرّاء العشرة ورُواتُهم هم.....٩٩
مكانة الكسائي وثناء العلماء عليه.....١٠١
رُبّ خطأ كان سببًا في الإمامة.....١٠٣
ورحل مؤدّب الأمراء، ومعلم الخلفاء.....١٠٧
ما يستفاد من حياة الإمام الكسائي.....١٠٨
الأسئلة.....١١٠
٧- عباس بن فرناس.. الرَجُلُ الذي طَارَ بِحُلْمِهِ.....١١١
في ظلال حضارةٍ تُحبّ العلم ينشأ عالمٌ لا يعرف الحدود.....١١٢
أهمّ أعماله وإنجازاته العلمية التي استفادت منها البشرية.....١١٥
الطيران محاولة من عَالِمٌ لا يَعرِفُ الحُدُود.....١١٥
تجربة الطيران.. تُعَلِّم العالم!!.....١١٧
ورحَلَ البطل وترك إرثٌ تجاوز حدود الزمان والمكان.....١١٨
الخاتمة والدروس المستفادة.....١٢٠
الأسئلة.....١٢٢
٨- عبدُ الله بنُ يَاسين.. رجلٌ بأُمّة.....١٢٣
الضَّوْءُ فِي قَلْبِ الظَّلام.. النور يبزغ من فاس.....١٢٤
لقاء لمتونة الشرارة الأولى للمرابطين.....١٢٥
عبد الله بن ياسين فقيه وحّد الصحراء تحت راية الإسلام.....١٢٦
من الدعوة إلى الدولة.....١٢٧
شخصية عبد الله بن ياسين القيادية.....١٢٨
ومضة تربوية للجيل الحديث.....١٣٢

وُلِدت الدولة رغم رحيله..... ١٣٢
من الدروس التربوية الخالدة..... ١٣٣
الأسئلة..... ١٣٥
٩- بقي بن مَخْلَد صاحب أشهر رحلة في طلب الحديث..... ١٣٥
مكانته العلمية..... ١٣٧
مِحْنَةُ الرِّحْلَة.. وَبَهْجَةُ الطَّلَب..... ١٣٨
قالوا عن بَقيّ بن مَخْلَد..... ١٣٩
موقفٌ خلّده التاريخ..... ١٤٢
عودة العالِم لِبلَده لنشر ما تعلّمه..... ١٤٤
شمس الشرق تسطع على قرطبة..... ١٤٦
دمعةُ وداع.. وإرثٌ خالد..... ١٤٧
الدروس المستفادة من حياة بَقِيّ بن مَخْلَد..... ١٤٨
الأسئلة..... ١٤٩
١٠- عطاء بن أبي رباح الحَبْر الزاهد..... ١٥١
نشأته وحياته العلمية..... ١٥٢
من أخلاق عطاء بن أبي رباح..... ١٥٣
العالِم الحقّ لا يخشى في الله أحد..... ١٥٥
نُصحه للحاكم وشفقته على المسلمين..... ١٥٧
وجاءت ساعة الوداع..... ١٥٩
الدروس المستفادة من حياة عطاء بن أبي رباح..... ١٦٠
الأسئلة..... ١٦١
فهرس الموضوعات..... ١٦٣

***